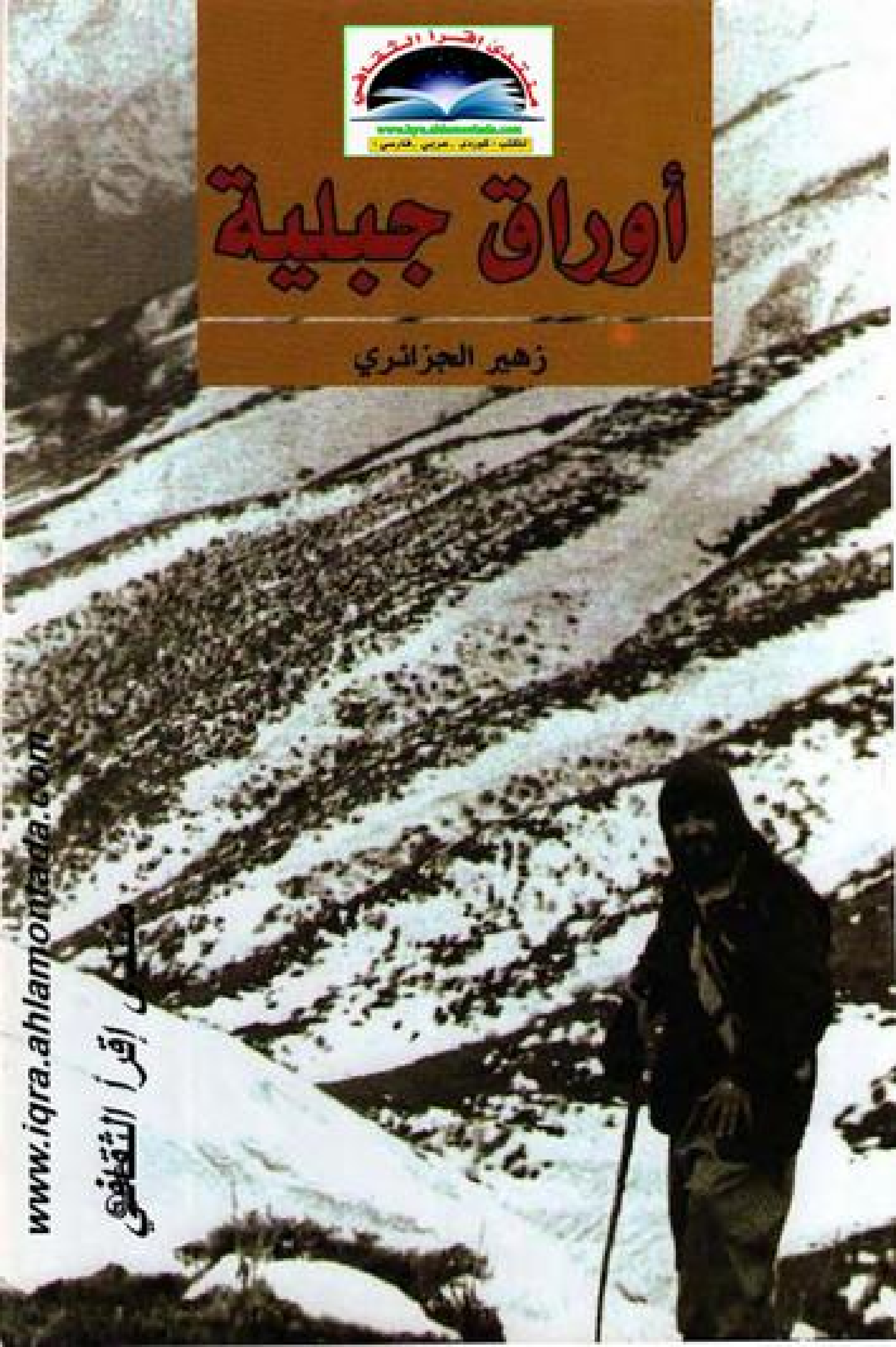


أوراق جبلية
زهير الجزائري
www.iqra.ahlamontada.com

أوراق جبليـة

الى خضر كاكيل، إبن الجبل ووالد المقاتلين فيه



أوراق جبلية

زهير الجزائري



دار اراس للطباعة والنشر

أربيل - اقليم كردستان العراق

دار اراس للطباعة والنشر
شارع گولان - اربيل
اقليم كردستان العراق
البريد الألكتروني aras@araspress.com
الموقع على الانترنيت www.araspublishers.com
الهاتف: 35 49 224 66 (0) 00964
تأسست دار اراس في (٢٨) تشرين (٢) ١٩٩٨

زهير الجزائري
أوراق جبليـة
منشورات اراس رقم: ١١١٤
الطبعة الثانية ٢٠١١
كمية الطبع: ١٠٠٠ نسخة
مطبعة اراس - أربيل
رقم الايداع في المديرية العامة للمكتبات العامة ٤٤٠ - ٢٠١١
الاخراج الداخلي: اراس أكرم
الغلاف: مريم متقيّان
التصحيح: أميد البناء

عودة إلى أوراق قديمة

كل ما مررنا به خلال ذاك المسير الصعب تحول الى وجود طارئ: فلاحون تركوا محاريثهم والتفتوا إلينا بدهشة، مهربون افرغوا بضائعهم في الجانب الثاني من الجبال وعادوا فأزاحوا بغالهم عن طريقنا كي نمر، رعاة تركوا خرافهم سارحة ووقفوا على التلة ينتظرون مرورنا وقد هيّأوا التحية، جنود في رباياهم البعيدة يلقمون البنادق والمدافع، أطلقوا قذيفة او قذيفتين ليبرئوا ساحتهم ويرسلوا تقريرا" العصاة مرّوا من هنا!"...

كل ما تركناه خلفنا اختفى دون أن يترك أثرا. كأننا ونحن نغادر الأمكنة نمسحها بحركة أيدينا ونحن نسير.

لم نستعذب الأمكنة ونحن نقطعها لأن الأهم هو أن نجتازها لكي نمر، وقد وضعنا حيواتنا في خطواتنا المتوجسة من غدر الأمكنة. ننظر إلى مواقع أقدامنا ونحن ندوس الأرض بحذر توجسا من الألغام التي زرعتها الحكومة أو (عصاة) قبلنا، وننظر قليلا أبعد من خطانا الى ممر غادر سنجتازه عما قليل ونتخيل أعداءنا عند منعطف فيه وقد لبسوا عباءة الموت السوداء وكتموا أصواتهم بانتظار غفلتنا عن الكمين.

تركنا الأمكنة والوجوه وما شهدناه من أحداث وقد أخذَنا حاضرٌ عجولٌ الى مسير أسرع لا لفتة فيه إلى الوراء.

مع ذلك ها أنا ذا أعيد كتابة هذه الأوراق بعد أكثر من عشرين عاما على صدورها من دار وهمية اختفت من الوجود. أنا نفسي لم تعد عندي نسخة من هذه الأوراق حتى أهداني واحد من رفاق الجبل النسخةَ الوحيدةَ التي احتفظ بها لمواجهة الإنكار.

كتبت النسخة الأولى تحت شجرة جوز في استراحة بين المسير والمسير. كتبتها لأثبت كل وجود عابر تركناه خلال المسير المستمر، كأنني اضع علامات الأمكنة التي أغادرها وأثبت أسماء الذين شاركوني التجربة ثم غابوا، وأدون التفاصيل اليومية لحياة غيّرتني دون أن أدري.

لم تتوقف الصبية، التي كنت ارافق فريقها خلال تدريب عملي في السليمانية، حين أخبرتها بأنني أعرف هذه الجبال لأنني عشت مع البيشمركة ثلاث سنوات. لم تتوقف ولم تستوقفها التجربة، إنما دخلت مباشرة الى محل يبيع أقراص الأغاني لتسأل عما يفضله الشباب هذه الأيام. خرجت لتخبرني بأن الأناشيد الثورية التي كتبت ولحنت عن البيشمركة، ومنها نشيد شهيدان، تأتي في الدرجة العاشرة من الاهتمامات.. بينما تحتل أغاني نانسي عجرم وأليسا وكاظم الساهر المراتب الأولى. لم تعاود لتسألني: ماذا كنت تفعل هناك في تلك الجبال وانت عربي وابن مدينة؟

أعيد كتابة هذه الأوراق لها ولجيلها الذي لا يعرف، وربما لا يريد أن يعرف. أعيد كتابة هذه الأوراق لأثبت ذاك التاريخ بوجه النسيان.

بعد سنوات عدت لكردستان من بابها الشرعي، دون مهربين هذه المرة، وفي موكب رسمي يحرسه مسلحون من الرئاسة. يتحرك الموكب خاطفا فوق الشارع المسفلت الذي كنا نعبره أيام البيشمركة ليلا وبحذر مشدد وبخطوت عاجلة. الشارع المسفلت كان عدونا الدائم لأن دبابات السلطة ومدرعاتها تأتي عبره، وعلى جانبيه زرعت ربايا الجيش الذي يطاردنا. موكبنا الرسمي يسير على شارع الحكومة في الطريق من أربيل الى دهوك مرورا ببارزان، وعيون حراسنا على الجبال التي كانت مأمننا. منها يتسلل الآن مقاتلو الـ PKK الذين يترصدون السيارات الحكومية كما كنا نفعل سابقا. لم أشعر وأنا على هذا الشارع بأنهم خطر عليّ بالذات ولم أشعر بالنصر كوني أخذت موقع الحكومة التي حاربتها..

في مصيف سنجار الذي لا يصطاف به أحد وفي عام ١٩٩٦ توقفت مع أدباء عرب جاءوا ليحتفلوا بمئوية الجواهري. جرني واحد من البيشمركة القدامى من يدي:

- أترى تلك القمم الرمادية المتتالية؟... خلف هذا الجبل مباشرة تلك التي تشبه ضروع بقرة مقلوبة؟ بالكاد لمحت قمما متجاورة لفها ضباب وغموض.

- .. هذا هو جبل قنديل!

تركت الشلال الهادر خلفي وموائد الطعام الغنية والسيارات المصطفة بانتظارنا، تركتها وتقدمت نحو حافة الأخدود لأبحث عن ذاك الوجود المحسوس للجبال أمامي لأسند الذاكرة والتذكر معا، لكن ذاكرتين تنازعتاني؛ ذاكرة الاستحضار عن قصد لذاك الماضي الذي صعدته كما صعدت قنديل آنذاك، وهو ماض زلق يجرني نزولا الى مجاملات اللحظة الحالية. وتعاكسني ذاكرة عفوية تتحرك الى الأمام، لكن دون أن توصلني الى فكرة.

لذلك أستعين بأوراقي القديمة وأنا أستدعى تجربة لم تفارقني، ولم يفارقني الحلم بأنني أخوض في متاهة من ثلج يصل حد خاصرتي وأنا اصيح مستنجدا وقد فقدت صلتي بالمفرزة المهزومة. أردت أن أرى نفسي هناك كما كنت فعلا في ذلك اليوم ٣١- ٥- ١٩٨٣ رأيت نفسي وأنا أدب على تلك القمة خائضا في ثلج يصل الى خاصرتي، تاركا ورائي وادي بشتاشان تدوي فيه القذائف ويلعلع فيه الرصاص وتأكل الحرائق فيه (مدننا الفاضلة)، ومعها حشد من الشهداء ومئات من رفاق لا أعرف مصائرهم. مثل عناوين فصول من روايتي مرّت صور أحداث ذلك اليوم الذي يطارد أحلامي: احتلال القمم، سقوط ليوجه، وزيوه ثم تطويق بشتاشان، حرائق الورق ونسف مخازن السلاح ثم قرار الانسحاب الى الجبل...

نزلنا الى السهل فاقترب الجبل الذي صعدناه بذلك الإصرار الذي لايفسره غير جنون الحياة. لقد صورته في روايتي (مدن فاضلة):

"مع الظلام بدأت أفقد الوضوح وحدود الأشياء وبدت الجماعة فكرة مجردة، فالألم يمت لي وحدي وما عاد هذا الجسد المنهك المنغرز في الثلج قادرا على التمسك بأية فكرة غير وجوده الكابوسي المبهم وتلك الغريزة التي تجعله ينهض حين يكبو ويستمر في السير، وصعد الى الرأس بخار ثقيل يجعل الأوهام أكثف من الواقع... أدخل سردابا من ضوء كبريتي مثل بئر تمتد أفقيا... تنقطع فجأة

مثل هاوية... أسقط فيتلقاني فراش الثلج وأنهر نفسي: " مالَكَ؟ وضوح!" أحاول امتلاك جسدي المخدر، وأرفع رأسي فأرى واحدا نام على وجهه وهو يأكل الثلج وآخر يحفر الثلج بأصابعه: "فقدت هنا قطعة لحم ساخنة" ويئن مثل طفل حين يجرونه بعيدا عن كتلة الثلج... أرى نارا مشتعلة في نهاية السرداب وقد تحلقت حولها أكف مثل طيور محترقة وأسير على هدي هذه النار فيعترضني رفاق تمددوا على جانبي الطريق. أعبر واحدا منهم دون أن أسميه فيجرني الثاني، أعبره وأرى من يجره من نومته بعنف:

– ستمووووت!

ويجرني ثالث... أفقد غريزة البقاء وألقي جسدي على الثلج غير راغب في النهوض حين ينادوني... بدأت أعد الثواني: واحد، اثنان، ثلاثة... وأقفل عيني لأنال السلام: تمحي الصخور الناتئة وتلال الثلج وآثار أقدام من سبقوني وسلسلة القمم اللانهائية وهذه الضربات والكبوات والسير الشاق وعبء الحياة الذي نحمله كالبغال. وبدأ تعب مخدر يملأ جسدي مثل حكة خفيفة في مكان غير محدد داخلي، وبدأ الألم دليل الحياة يهجر اطراف أصابعي، قدمي، ركبتي ولم أعد اسمع نداءات الحياة التي يرسلها جسدي وما عدت أسمع حتى أنيني ولا ذلك الصوت الآمر" إرادة!"... حتى الوساوس سكنت وتجمعت ذبالة الحياة الباقية حول لسان أخير من لهب أحميه وأحتمي به... في النهاية رأيت جسدي وقد استحال ثلجا ستجرفه سيول الربيع..."

على الشارع المسفلت والموكب الرسمي راودني إحساس ما بأنني خنت صديقي الجبل حين نزلت الى المدينة، ورافقني إحساس باختلال المكان وانا اعيد اكتشاف نفسي في الموقع الجديد. أحيل الى المكان اختلال الزمن والموقع. كنت أتلفت حولي في السيارة باحثا عن واحد شاركني التجربة، هو وحده قادر على أن يعرف سر الدوار الذي أصابني وأنا اراقب القمم التي تشبه ضروع بقرة مقلوبة، وأبحث بين وجوه حراس موكبنا وأسأل: أي منهم طاردنا وقتل رفاقنا وهم نيام على الثلج، ثم أنحِّي الفكرة قائلا لنفسي: عمَ تبحث؟ فتأريخك تاريخ للقتل والنسيان.

البيشمركة الذين قاتلت معهم السلطة صاروا رجال السلطة البديلة. أدخل دوائرهم فيخرجون من وراء طاولات السلطة الفارهة بالبدلات الرسمية السوداء المزررة وربطات العنق، حائرون بين الابتسام من لقاء المفارقة وبين تصنع الجد الذي يتطلبه الموقع الجديد. يمدون أيديهم لي باعتذار وحرج كوننا قد تغيرنا حين خذلنا والدنا الجبل وصرنا ابناء مدن ورجال السلطة التي حاربناها. مع ذلك لم أتخلص وأنا في المدينة من المقارنة بين الموقعين وبين المكانين. أتفحص الصبغة الفاحمة التي حاولوا بها أن يغطوا الشيب ومحو زمن المتاعب في الجبل، وبدوا وكأنهم يحاولون التأصُّل مع هذه الغرف الرسمية.

تعمّدت وأنا ألتقي رفاق الجبل أن ألغي المجال البروتوكولي وأبدأ الحديث معهم عن مفارقات الحياة في الجبل. وحالما نبدأ الاستذكار تنزاح طبقة الجد وتقفز ابتسامة طفلية وإحساس ما بأن ذاك الزمن هو زمن البراءة وما الحاضر، بالبدلة السوداء وربطة العنق وصبغة الشعر، إلا أمر فرضته ضرورات الحكم.

كنت أغالب عواطفي لأعذرهم.. فلا مفر من كل هذه االتواطؤات لبناء الدولة التي حلم بها الكرد. وبيني وبينهم حاولت أن أحدد موقفي كمناصر وناقد.

لهؤلاء أيضا أعيد كتابة هذه الأوراق تذكيرا بذاك الزهد ونبل القضية التي فرشنا لها سجاد شبابنا.

لهم جميعا اثبت ذاك الماضي بوجه الحاضر النساء والمستقبل الذي يأخذنا إليه بلا ذاكرة.

لكل هؤلاء، ولكن قبل ذلك سأكتبها لنفسي وأنا أعيش التعارض بين ذاكرتي والحاضر، وبين ذاكرتي وتذكري. أحاول أن أغفل الحاضر لأستحضر صور تلك التجربة، لكن الحاضر يستغفلني وينسل ليقول لي أنت هنا في بيتك في عينكاوة تطل على حركة المرور وأمامك فلاح لايعرف الفلاحة. أحاول ان أستحضر ما ليس حاضرا، وبالأحرى ما كان حاضرا ومضى. فيغافلني الحاضر ليذكرني بأن أستعجل الكتابة لأن موعدا ينتظرني بعد ساعة ونصف. مع ذلك أعيد كتابة اوراقي لأضعها امام زمن من الإسمنت.

العبور

وأمست تخيرنا بالنقا

ب وادي المياه ووادي القرى

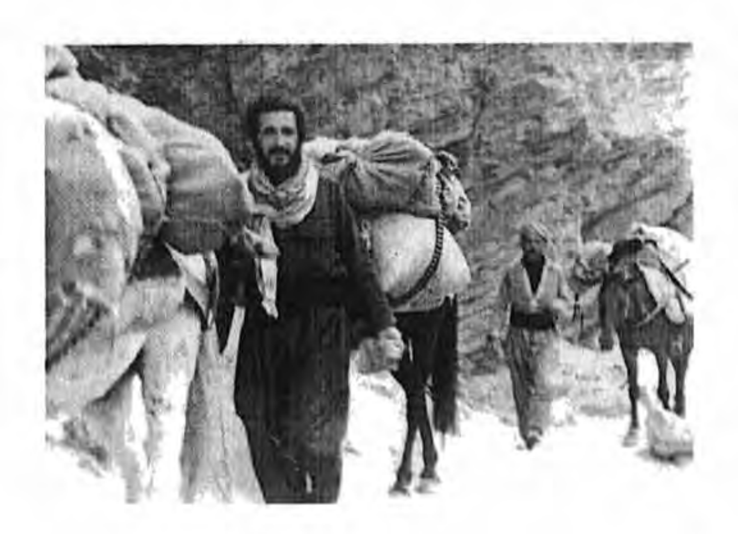
وقلنا لها أين أرض العراق؟

فقالت ونحن بتربان: ها!

وهبت بحسمي هبوب الدبو

ر مستقبلات مهب الصبا

المتنبي



محطات الحدود

إلى محطات الحدود يأتي المقاتلون من كردستان، جرحى،مجازين أو هاربين. واليها يأتي الذاهبون ليمكثوا أياما بانتظار المفرزة التي ستأخذهم إلى الجبل والسلاح.

في بيوت الضيافة يلتقي الداخلون بالخارجين، وهناك تجري عملية تبادل ملابس عجيبة:

- الصاعدون إلى الجبل يتركون القمصان المنقطة المخططة والبنطلونات الكاوبوي والأحذية اللماعة، ويرتدون، وربما للمرة الأولى، (الشروال) الكردي و (البشتين)[1].

- والنازلون من الجبل إلى المدينة يخلعون ملابس الجبل، وقد تركت حمالات السلاح اثارا غائرة على لحم أكتافهم. يحشرون سيقانهم في البنطلونات الضيقة، آسفين على ذلك الهواء الحرك بين جلودهم ونسيج الشروال.

وأمام المرايا يتمايز الصاعدون هيئاتهم الجديدة حائرين بين الجد والهزل، بينما يحاول النازلون استعادة الهيئة التي نسوها بحرج وهم لا يدرون أنهم تبادلوا مع الملابس حياة بحياة.

الخطوات الأولى في المدينة صعبة ومربكة للمقاتل الذي غادر الجبل، فأقدامه لا تثق بالأرض المسفلتة المنبسطة..تمسها بريبة قبل أن تستقبل ثقل الجسد، كأنها تمس الفراغ " امن المعقول وجود أرض بلا حفر أو حجارة؟!".

١-الشروال الكردي يقابل السروال الذي يرتديه الجبليون اللبنانيون ويمتاز بالسعة عند الورك، أما البشتين فهو حزام قماشي يلف عند خصر الرجل عدة لفات ليساعد الجبليين الأكراد على الاحتفاظ باستقامة ظهورهم عند صعود الجبال وخلال العمل.

لن يتخلى المقاتل النازل من الجبل إلى المدينة عن ذلك الحذر الغريزي الذي يرافق السير في الجبال. فقد دهشت، أنا الذاهب إلى الجبل، عندما رأيت مجموعة من المقاتلين، يسيرون في شوارع المدينة، وبينهم المسافات نفسها التي احتفظوا بها خلال السير في المفارز.. يراقبون مواضع إقدامهم وما حولهم بالتفاتات حادة. حتى الإحساس بالمسافات اختل وأربكهم. فالحجوم والألوان وهندسة المكان تغيّرت تماما في المدينة المستوية المتناظرة الملساء.

وبعد ذلك الصمت الجليل الذي يكلل الجبال، حيث لاتسمع غير زقزقة عصفور أو خرير نبع أو وشوشة الريح في الأوراق، سيكون صخب المدينة مثيرا للأعصاب.. كل صوت فيها ينادي المقاتل ويتجه إليه وحده.. زمور سيارة بعيدة، نداء البائع أو طرقات على الحديد..

الضوضاء المثيرة وتغير المسافات يجعلان عبور الشارع صعبا كعبور ربية. وسيكون ركوب السيارة الأولى مربكا حد الضحك، ولحد ما يشبه السير في الحلم، وإلا فكيف يمكن اجتياز المسافة دون أن يحرك الإنسان قدميه؟!

في الجبل ألف المقاتل الروائح نفسها التي عرفها جده المزارع أو الراعي. رائحة العشب الندي في الصباح الباكر، رائحة الصخر الملحية في يوم شديد الحرارة أو رائحة الطين بعد ذوبان الثلج.الماء الذي لا رائحة له حين يندلق من الحنفيات يكتسب نفس رائحة الطين وأعشاب القاع في الجبل. يشم المقاتل رائحته قبل أن يراه. وقبل أن يرى القرية بعد مسير طويل تدله اليها رائحة الخبز وقد امتزج بخشب التنور. في الجبل تأتي الروائح لتدل على الأسماء: ثلج، نار، تراب، بعرور عنز.... في المدينة تتغلب الروائح التي تنتجها الآلات فتصدم المقاتل النازل توا من الجبل. المقاتلون شعروا بدوار فظيع من دوي السيارات وبعضهم استفرغ من رائحة البنزين المحترق.

في دور الضيافة ينسى المقاتلون إغلاق حنفيات الماء، لأن ينابيع الجبل تتدفق بلا حنفيات ولا فواتير شهرية. وكلما نهضوا في الليل من فراشهم، تمتد الأصابع تلقائيا لتبحث عن المصباح اليدوي. ولأيام كثيرة بقي المقاتل يبحث،

كلما همَّ بالنهوض، عن شيء في يمينه، شيء أكيد وعضوي له وزن البندقية وشكلها و صلابتها، فبعد سنوات من رفقة وثيقة، كادت البندقية أن تصبح ذراع المقاتل الثالث المتصلة بعظام الكتف وغريزة الدفاع الأزلية... كم من الوقت، إذن ستحتاج المدينة لتمسح البندقية من غريزة المقاتل؟!

كل خطوة إلى المدينة،هي خطوة ابتعاد عن الجبل، على الأرض وفي داخل النفس. وكل اعتياد جديد يزيح اعتيادا قديما. ولا يستطيع الوعي المتوتر من صدمة المدينة أن يترك للعضلات تلقائية الحركة.

كما يخطو القادم الجديد أول خطوته في المدينة، يبدأ الذاهب رحلته الوجلة إلى الجبل:

من عواصم الدنيا يأتي لمحطة الحدود ملتحقون جدد، بدأوا قبل أيام قليلة بإطلاق شواربهم ولحاهم.. أغرار هيابون، يقلقهم حشد من الأسئلة المخجلة:

- هل يستطيع إنسان مثلي، وبهذا الجسد المترف، مقارعة الجبل؟
- كيف تمكن الحياة بدون كراس ولا مصابيح كهربائية؟
- أين يستحم الإنسان في الجبل؟
- كيف تمكن الحياة بدون معاشرة النساء؟
- ....

بقلق كنا نتجول في أخر المدن. وكما أوصانا رفاقنا،ارتشفنا ضوء المصابيح الكهربائية وتحسسنا بإقدامنا العارية ملمس البلاط الناعم. كنا نكتشف هذه البداهات الحضارية من جديد ونحن ندري إنها ستصبح عما قريب في خبر كان:

- هل سنحتمل الفراق؟

نقول لأنفسنا ولبعضنا بقلق أو سخرية. لكن السؤال أكثر جدية مما يبدو، فقد ولدنا في المدينة وتجاوزنا الثلاثين فيها. وبين جدرانها تكونت اصغر عاداتنا و أكبرها.

لا تخفي المحطة الأخيرة مخاطر ما نحن ذاهبون إليه، ففيها يتجمع جرحى المعارك ومرضى الحياة القاسية في الجبل.

دخلت واحدا من البيوت بين صفين من العكازات والسيقان الصناعية تشابكت وتجاورت على جانبي الممر.. بسكونها ورقودها على الجدران دلتني الى غرف ازدحمت بالأسرة. ضوء النهار الأخير المنسكب من الشبابيك دلني على وجوه شبان استيقظوا من البنج قبل أيام واكتشفوا.. ويا للهول! لقد فقدوا ساقا أو ذراعا أو عينا ملفوفة بالشاش لن ترى النور بعد الآن. قبل غروب الشمس تلوب أرواحهم من الرقاد على السرير فيخرجون وينتشرون في شوارع المدينة بأذرع أو سيقان مبتورة، يحجلون على عكازات لم يتعلموا استعمالها بعد، ولذلك يواجهون الحياة في البداية بنوع من التشنج والإحساس العميق بالغبن، نظراتهم الحادة لنا تشعرنا بنوع من الحرج لأننا مازلنا نحمل أعضاءنا كاملة.

الى جانب واحد منهم منضدة ازدحمت بالأدوية والمهدئات رايت كتابا لي وابتسمت فرحا لأني بكلماتي ساعدته في خطواته داخل ممر الزمن الراكد.

منظر جرحى الحرب يصدم القادم الجديد ويعزز مكامن الخوف فيه ويجعل خطواته أكثر حذرا وترددا.

ثمة جرحى آخرون أصاب الرصاص أرواحهم قبل أن يصيب أجسادهم. يتابعون استعداداتنا للرحلة بنظرات باردة متراخية وهم يبددون أوقاتهم بين المقهى والسرير ونقاشات الليل الطويلة.. بنظراتهم وتعليقاتهم الخاطفة يريدون أن يستفزونا لنقاش لا نملك مقومات خوضه، ولا نملك ردا على أدلتهم الملموسة، وحالما يمسكون مفتاح الحديث، يلقون الكتاب السميك الذي استعاضوا به عن التجربة ويبدؤون بمداهمتنا ليكسروا حدة روحهم.

غالبا ما كانت شراسة الكلمات تعويضا عن نقص اليقين. يعملون المستحيل من اجل تسفيه التجربة التي سنخوضها... لقد جمعوا في البوم مفهرس الصور السلبية السوداء للتجربة التي غادروها.

بالقصص والشواهد يريدون أن يقولوا لنا في النهاية:

- ما انتم ذاهبون إليه، وقد تموتون لأجله، هو الوهم ليس إلا!

... رفاقنا القادمون من الجبل لن يتركونا عزلا أمام الهواجس والأسئلة. فقد تحلقوا حولنا، يشدون حقائبنا وحمالات السلاح على أكتافنا ويعرضون خبراتهم بحب ومباهاة. فالقادم الجديد مدلل بينهم كالوليد الأول.. ساذج ومحبوب، يسأل ويستمع بعيون مستديرة كعيون الأطفال. لا يباهي بشيء غير الرقة التي حملها من المدينة. له يتقدم أكثر من ناصح خبير.. وكل ناصح يتلبس الكهولة ليحادثه:

- كل شيء سيبدو صعبا في البداية، لكنك ستعتاد خلال أشهر.

..هكذا سنذهب إلى الجبل الغارق في الغيوم.. كتله هائلة من الغموض والأسئلة الصعبة.

العبور

بعد التأكد من بغاله تفحصنا الدليل الشيخ.. واحدا واحدا. بعينه النافذة الحادة تلمس أجسادنا والفراغ اللين بين عضلاتنا:".. ومع ذلك فلنجرب!".. قال لنفسه وأعطى إيعاز الحركة:

- دي، دي، ديـــي

في الساعة السادسة صباحا بدأنا المسير بخطوات مشددة وهمة مصطنعة... لن نرفع أبصارنا إلى الجبل، كنا نشغلها عن هول الجبل بالزوغان بين الحجارة وسواقي الماء عند السفح. نكتم الشهيق ونشد قاماتنا باستقامة لنثبت، لأنفسنا أولا، إننا جديرون برحلة الرجولة هذه.

الجبل الذي صنع نفسه بنفسه من تموج الأرض وحرارة دمها، لم يضع الإنسان في حسابه ولم يكيف نفسه لخطى الإنسان. لذلك قدم لنا منذ البداية أصعب سلاله: ممر ضيق كثير التلوي حاد الصعود... بصعوبة كنا نرفع أقدامنا لنضعها أمامنا ثانية، ونجرها جرا فنصدم الحجارة ونكبو في الحفر. خطواتنا تتقاطع من أنفاسنا الجارحة ومع مسقط نظرنا.

قائد المفرزة الشاب يأتينا من المقدمة بين آونة وأخرى بقفزات جانبية منغمة.

يربت على أكتافنا وهو يكبت ابتسامة ساخرة من هيئاتنا المزرية. بحركات سريعة يعدل قيافتنا، فأناقة المفرزة من أناقته، ويلقي لنا بنصائح حفظها عن ظهر قلب:

- طابقوا أنفاسكم مع خطاكم، ولتكن خطواتكم قصيرة منتظمة!

- لا ترفعوا القدم الثانية قبل أن تتأكدوا من ثبات الأولى.

- وازنوا أحمالكم وتنفسوا من الأنف!

لكن من يستطيع أن يغير، في ساعات، آلية سير تعلمها المدن خلال عشرات السنين؟!

نصعد ونحن نجاهد بروحنا بين شدين... حبل غامض يتصل مباشرة بالقلب يشدنا إلى المفرزة التي سبقتنا، حبل من المكابرة والخوف من العزلة، والى القاع يجرنا جسدنا بألم العضلات واحتكاك المفاصل، فيربك بصيرتنا الصاعدة. ومن الوهن والرغبة الشبقة للوصول كنا نغذي إرادتنا الناضبة بالأوهام. ويقدم الجبل للعاجز عن صعوده والجاهل بتضاريسه ما يريد من الأخيلة. فالجبل التالي يبدو على مرمى حجر. وكلما استبد بنا العطش يهدينا الجبل وشوشة نبع لا وجود له. ومن شق بين صخرتين تلوح قرية باردة من ظل وضوء. وكما تريد النفس المنهكة، يبسط الجبل للعين قممه فتبدو يسيرة كالكلمات...

لكن، كلما توغلنا صعودا تصحح الممارسة ما أخطات العين تقديره، وكلما تطابق البصر والبصيرة قل الجهد.

الدليل

الدليل حل معادلة البصر والبصيرة.. لقد عرف المسافات والارتفاعات كما هي.. خطواته متطابقة تماما مع نبض قلبه.. يعرف المسالك الوعرة ويقيسها بطاقته. لا يستنجد بطاقاته ولا يباهي بها ولا يبذرها... يقيسها فقط بالحاجات التي تستدعيها... بين أونة وأخرى يستريح وهو واقف. فالجلوس يبدد الحرارة التي كسبها الجسد من السير الطويل. يقف ويلتفت إلى الخلف ليكافئ نفسه بمنظر

الدروب التي قطعها، ثم ينحني ويدوس الأرض غير آبه بالقمم الباقية أمامه.. قد يضنيه السير والحر فيأخذ حفنة زبيب وجرعة ماء ويمضي مستنفذا طاقاته بهدوء ودقة مثل وقود غال...

يصعد الجبل وينزل منه بإيقاع ثابت. لا تهوله المرتفعات لأنه يعرف انه واصلها بالتأكيد، ولا تغريه المنحدرات بالتدحرج. والدليل بخيل بما لديه. فمن عارك الجبل وحيدا يعرف قيمة زمزميه ماء أو علبة كبريت أو قطعة خبز... كل شيء مهما بدا رخيصا، قد تكون له قيمة الحياة نفسها إذا ضاقت...

ساعة الدليل هي صفحة السماء الجبلية المتقلبة.. سحابة رصاصية ثقيلة تضيق عليه الزمن فيستحث الخطى إلى اقرب مغارة، ويطارد الضوء حتى محطته الأخيرة. وساعته على الأرض هي المسافة بين عين ماء وأخرى. والدليل بخيل بالزمن كما هو بخيل بالماء، لأنه زمن غلاّب وغادر. لذلك لا يفرط به من اجل واحد أضناه السير فكبا. وعلى خلاف قائد المفرزة يندر أن يقدم الدليل عونا لمتعب غير الحث على السير. ينظر للمتعب الممدد على حافة الطريق باستغراب ساخر: "لماذا خلقه الله بهذا الجسد الهش؟!"

أكره الاسئلة عند الدليل سؤال عن ساعة الوصول. فقد تعلم الدليل من غدر الطبيعة أن يحيل كل ما هو قادم لإرادة الخالق. لن ترى دماثة الدليل ولا ابتسامته إلا عند عين الماء.

***

يتقلب الجبل عند أول القمم ويفاجئنا بمزيد من العجائب والصعاب.. كل قمة تحيل للأعلى منها: الابن يحيل للزوجة، والزوجة تحيل للأب المعمم بالثلج. لقد أطلق الإدلاء على القمم ألقاب العائلة وأعطوا القمة الأعلى شرف الأبوة... يأتي السفح ليمهد لصعود القمة الأصعب. وربما تنام الروح عند نهير.. ولكن تصحو بعد ذلك عند قطع صاعد اجرد.. والجبل الذي صعدناه اجرد اجرد. شديد البرد لا يسمح بين حجارته الزجاجية إلا للنباتات الشعثاء الشائكة. ولا مكان فيه إلا لكائنات لها لون الحجر والتراب. جبل جهم لا يليق إلا بالمهربين الذين استحثوا

الخطى خوفا من (الرياح السوداء). طوال الطريق كانت الطيور الجارحة تحلق فوق رؤوسنا وتحت الشمس الحادة فتترك على الأرض ظلالا منزلقة.

فجأة رأينا شقا في الجبل و لفحتنا نسمة باردة كأنها حلم محموم... من بعيد رأيت صفا من أشجار الحور الرجراجة:

– ماء؟!..

أسرع الأدلاء بمرح وهم يطلقون صرخات مزغردة... الآن صدقت ما قاله قائد المفرزة: كأن الماء والخضرة مرتبان في كردستان لاستقبال الإنسان بعد رحلة استنفدت إرادته. فالنبع مكافأة دائمة تنتظر المتعب وتحثه على مواصلة السير. لم نأبه بالصوت المحذر، فقد انبطحنا على بطوننا ورحنا نرشف الماء بفمنا من فم الأرض ونسمع صوته المزغرد.. لكان يدا من النار أهدتنا كأس ماء بارد. لم يشرب الأدلاء الماء قبل أن يفكوا أحمال بغالهم. وحالما تحررت البغال من الأثقال والحبال أخذت تتقلب على الأرض المعشبة الندية وهي ترفس الهواء بحوافرها في لعب طفولي جميل. جلس الأدلاء عند نبع الماء وقد شعت عيونهم بفرح رصين، ومدوا أكفهم بهدوء، كأنهم يتبركون بالماء أكثر مما يغترفونه. و ما رأيت وجوههم وأصواتهم طليقة مرحة.كما هي الآن قرب الماء والنار التي أشعلوها بسرعة عجيبة.

***

كرة ملتهبة هائلة ارتفعت تدريجيا من وراء القمم.. لم أر في حياتي، شمسا غاربة بهذا القرب والوحشية.. شيئا فشيئا غابت تفاصيل القمم واستحالت إلى ظلال هائلة.. هنا وجه مرفوع للسماء في استغاثة بدأت مع الكون، وهناك رأس مارد منكس، أطراف أصابع من إنسان غاص في الحجارة، قامة رجل ملحمي راحل إلى الأبدية... كل شيء اكتسب فجأة شكل أسطورة وإيقاعها. حتى خرير الماء وصرير الحشرات. إننا الآن أسرى الجبل اللئيم الهائل المعادي للإنسان. يعزلنا ويأخذ ثمالة روحنا... وعندما حل الظلام تماما على الجبل، ما عاد بإمكاننا رؤية رفيق على بعد أمتار. تلقائيا أخذت أصواتنا تجلجل لتعوض عن

غياب الأشكال... تقربنا النار إلى بعضنا وتنحت لنا وسط الظلمة تفاصيل قليلة كأنها تذكارات من إنسانية ذابت وسط هذا السديم الأسود... في البعيد البعيد رأينا جمرة معلقة وسط الظلمة. قائد مفرزتنا قال ببرودة مقيتة: «ربما تكون هذه النار لرفاقنا في فصيل الدوشكا!». قال ذلك دونما إضافة. خفق قلبي وأنا اسمع هذا الاحتمال. فرغم بعد المسافة، حملتني تلك الجمرة الذاوية إلى شلة من رفاق يعرفونني واعرفهم بالتأكيد: وبقيت طول الليل أرنو ببصري إلى تلك الشعلة وأناشد الملتمين حولها: «ضعونا في احتمالكم»!

نمنا قليلا ونحن نلتصق ببعضنا ونتقلب حول النار الذاوية لتحمينا من البرد الذي كاد أن يجمد دماءنا. وبقينا طويلا نغالب البرد والنعاس ثم فاجأنا ضوء الفجر الأول وقد لون حواف الأسنان العالية للجبل فزاد وادينا ظلمة. تعلقت أبصارنا بهذا الضوء المتسلل الذي حرك الأدلاء في فراشهم فجأة، كأنهم سمعوا جرسا من الضوء... أوقدوا نارا سريعة. وعلى ضوئها بدؤوا يحملون البغال استعدادا لمعاودة المسير.



البغل

تسلقنا القطع الموصل لأعلى القمم. حوافر البغال كانت تقرع الحجر بوتائر متصلة. وأنفاسها تعطي لذلك الصمت الرهيف إيقاع الساعة. لم نتلفت كثيرا كما نصحنا أمر المفرزة. فإلى يميننا سيسقط النظر إلى قاع ذلك الوادي السحيق الذي يدوي النهير الجارف في أعماقه... بدا القلق على وجوه الأدلاء. تقافزوا على الصخور واخذوا يتفحصون استقامة سيقان البغال وثبات ظهورها وتوازن الأحمال وتوتر الحبال.. «عما قريب سنعبر ممرا خطيرا!»... كنا ندوس الأرض بعضلات مرتعشة وأصابعنا متشبثة بجدار الجبل. حدث شيء.. حركة متقاطعة أمامي. فقد انزلق واحد من البغال.. بحوافره القوية حاول أن يمسك نتوءا، لكن الحمل الثقيل كان يجره إلى الوادي. المكارون هرعوا إليه وهم يتقافزون فوق الصخور بخفة السناجب. احدهم تمدد على حجر ناشز وبقي نصفه الأعلى مكشوفا للهاوية ممسكا بحبل اللجام. ونزل ثان على حواف الصخور ليمسك ذنبه. ثالث رفع رأسه نحونا:

– سكين!

راقبت وجه البغل بذهول بليد، عاجز عن أن افعل شيئا لهذه الحياة التي توشك على الانهيار.. غارت الحدقتان واتسع بياض العينين راجفا. وانقلبت شفة البغل العليا فبانت لثة صفراء خالية من أي دم، وتوترت الأذنان ونامتا أسفل الرأس. الحافر الفالت من الصخور بقيّ يقرع الفراغ... كل ما في البغل يصرخ: "دخيلكم!"، مدرك لحظاته الأخيرة، وقد تجمعت كل حرارة الحياة ودوافعها في حافر بين صخرتين... بالسكين قطع احد المكارين الحبل فهوى الحمل ومعه كتبنا نحو قاع الوادي بجلجلة صاخبة. فعل ذلك حتى دون نظرة اعتذار. وما كنا أسفين. ما قيمة الكتب حين يتعلق الأمر بحياة رفيق سفر دائم وصبور!؟

لم ينفع شد الحبال ولا تلك الانشوطة من الأذرع السمر. فقد قضقض الحجر. وللحظة خاطفة رأيت بطن البغل الأبيض وقوائمه التي ترفس الهواء وقد تقوس الرأس والعنق إلى الأعلى في شبوب إلى المكان الذي انفصل عنه... ارتطم

وصعد ثانية وهوى مع سيل من الحجارة.

– امسكوا البغال جيدا،اديروا وجوهها بعيدا حتى لا تنتحر!

صرخ فينا الدليل الشيخ.. فقد ساد البغال هياج عجيب بفعل ما حدث. وتعالت أصوات المكارين وتقاطعت في حديث يتصل بالحياة التي أفلتت منا، ثم سيطر على القافلة وجوم ثقيل. ولأول مرة أدرك جدية نصيحة الرفيق الذي قال لي:

– لا تستنكف من تسمية البغل بـ«الرفيق»!

فالبغل، على خلاف ما عهدناه وشتمناه، حيوان حساس وذكي.. ولا يعرف مكامن حساسيته وذكائه إلا من سار معه طويلا. يقول المكار بثقة: «إذا حرن البغل في مكان، فلا تتصور انه مجرد عناد. تأكد أن ثمة خطأ في الطريق أو أن عاصفة قادمة». ولا يبدو على البغل، وهو منكس الرأس، انه يرى أكثر من مواضع حوافره. لكن بتلك العين الساهمة المسدلة الدوارة يستطلع البغل طرقة ويختار أيسرها إلى القمة. ولا يرفع قائمة إلا بعد أن يثبت الأولى ولا يعبر مخاضه الماء إلا بعد دراسة مستفيضة.. يتسمع صوت الماء ويعرف المكان الأفضل للعبور والسباحة. يحرن البغل في مكانه ولا يتقدم خطوة حين تقسو عليه بالضرب أو تجور علية في السير والحمل.. وإذا ضاقت عليه الأمور وزاد الألم عن حدود احتماله وعن كرامته كبغل، يختار الانتحار بإلقاء نفسه من القطوع العالية. يفعل ذلك دونما تردد وبإندفاعة مباغتة..

العراق

وصلنا أعلى القمم فتمددت حولنا السهول والمسافات. التفت إليّ اقرب الأدلاء وقال:

– هذا العراق!

قالها بلا مبالاة وهو يشير بإصبعه إلى واد عميق اجرد. ومضى في طريقه. فبالنسبة لمن عبر هذه الجبال مرارا ما عادت الحدود بين الدول تعني شيئا

بمقدار الحدود بين الجبال. شيء ما خفق في الروح ونحن نطابق كلمة (العراق) التي قالها الدليل مع هذا الوادي الأجرد. أردنا أن نستحضر ثقل المنفى ونحن نضع الخطوة الأولى على أرض الوطن دونما جوازات سفر. خطر لنا أن نُقبّل حفنة من التراب..

في قعر الوادي رأيت بغلا نحيفا ووحيدا هوى من القمم أو افلت من قافلته. الطيور الجارحة تحوم فوقه وتأكل من لحم ظهره وهو واقف بثبات وصبر عجيب... طويلا بقيت أراقب هذا البغل وكان الدليل يستحثني للحاق بالقافلة... " هذا هو العراق "! فيه شيء كبير من هذا البغل المنكس الموغل مع ألمه.. تأكل الطيور الجارحة لحمه وهو واقف لا يريد أن يموت ولا يصرخ. هل استطيع وأنا أضع الخطوة الأولى على الخيار الجديد وأن اخفف بعضا من عذابه؟!

بدأنا الانحدار بحيوية افتقدناها. هجم الأدلاء على كتلة متقادمة من ثلج القمة. كم من السنوات مرّت دون أن تستطيع الشمس إذابة هذه الثلوج التي تتجدد فوق بعضها. كالأطفال اخذ الأدلاء يتقاذفون كرات الثلج ويمسحون به وجوههم للتبرك. بعد ذلك القينا بضع حجارات على قبر فاسق لا نعرفه. شربنا الماء من نهير دافق يلمع الحصى في أعماقه. في البعيد رأينا واديا اخضر أشار إليه قائد المفرزة:

– في هذا الوادي، خلف ذلك الصف الطويل من الأشجار يقيم رفاقنا!

وبدا لنا أول اثر للبشر.. بيت من الشعر على ساقية أمامه شجرتان. في داخل البيت عجوز وطفلة وبضع معزات. سلّمت على العجوز ووددت لو تسقيني من يدها كأسا من حليب بارد. سألتها أن اقطع التين فوافقت بهز رأسها وهي تتفحص هيئتي العجيبة. كان التين مغبرا جافا. ولكن حالما فلعته تبدى كالجوهر ذلك الأحمر الذي يلذع الفم بتناوب الحلو والحامض. سرنا بجانب الساقية حيث تركت الغنيمات عناقيد بعرورها دليلا لحياة أكثف. عبرنا جسورا من الخشب وحيطانا من الحجر ونحن نحس لمسات الإنسان التي أعطت الطبيعة ألفة ونعومة. وشممنا تلك الرائحة التي لن ننساها أبدا، رائحة خبز يشوى. وبدت لنا أول نجيمة من شعاع الشمس تلمع على فوهة بندقية.

بشتا شان: وراء الطواحين

المكان أحالني دوما إلى الصمت

جول فيرلين

وسط قوس من جبال، فسحة من سهول وسفوح متفاوتة الارتفاعات متغيرة الألوان. سفوح مقسمة بجدران من حجارة. وسط كل حقل ينغرز، مثل مسمار مسود، جسد فلاح يحمل فأسا. وعلى حوافها، بين الجبل والسفح، قطعان ماعز متناثرة. ينبئ عنها جرس العنز القائد الذي ينغم الصمت ويزيده رقة ورهافة... سهول أخرى مغطاة بحجارة مشظاة وسوداء. سفوح من طين احمر تنام عليها حجارة هائلة اقتلعتها السيول من لحم الجبل وألقتها هناك، وبقي على جسد الجبل جرح لن يندمل أبدا. النهير الدفاق الملتوي الصاخب الملتف حول الحجارة والخارج من شرايينها يخترق هذه السفوح ويلم على جانبيه أجزاء الحياة المتناثرة.. رفاقنا يتبعونه دائما، وعليه يشيدون حياتهم الصعبة.. هذه بشتا شان للوهلة الأولى. وصلناها ومفاصلنا الساخنة تئن من وجع رحلة طولها عمرنا. حفاوة الوجوه التي نعرفها، أو تعرفنا عليها، أنستنا الفراش الذي اعد لاستقبالنا في خيمة ظليلة.



بسرعة غريبة تسرب خبر وصولنا إلى الفصائل الموزعة والربايا ومرابض المضادات في القمم العالية.

كل الوجوه التي عرفتها تغيرت هنا بشكل عجيب.. غلاله من غبار شوشت علي معرفتهم. و لم تتضح المعالم التي عرفناها إلا بعد فترة. فقد شد الخطر والجهد أعصابهم وعروقهم، وبرزت عظام الوجنات كثمار غطاها الطين. أجسادهم تمثلت استقامة أشجار الحور و نحافتها وأصابعهم صارت كجذور الشجر.. لكان طين الأرض تغربل وتفكك ليرسلهم إلينا.

من مكان متوار بين الشجر وشعاب الجبل جاء القادة.. مجموعة ملتمة تسير بخطوات هينة. في رصانتهم حياء متضبط. صفوف الرصاص في أحزمتهم وقد تدلت منها مسدسات (توغاريف). لم نصدق هيئاتهم الجديدة. هيئة القادة المقاتلين، فقد اعتدنا أن نراهم في هيئة المناضل المتواري في بدلة معلم الأرياف المتسلل إلى مدينة مزدحمة.. تتحرك عيونه بنشاط حذر، مهيأ في أية لحظة لأن يكشف ويعاد للسجن الذي خرج منه قبل أيام... معالم الشيخوخة. بدت واضحة على وجوههم الجافة كأنهم كبروا عقدا خلال السنوات الثلاثة الماضية... فوجئت بواحد منهم قفز من فوق سقالات البناء. مسح الطين بسرواله وقد تسرب خيط من العرق ليشق طبقة التراب التي غطت حاجبيه وشاربيه الجديدين... قبل سنوات كنت أراه بسيارة مرسيدس فارهة، وبجانبه سيدة جميلة ملفعة بالفراء.. أنموذج لمن كسب من الحياة أجمل ما يمكن أن يكسب. كيف افلت من إغراء تلك الحياة وتلبس حياة الجبل!؟

ظلام

لأيام عديدة لم تألف عيوننا الظلام الذي يطبق بعد غياب الشمس... نغادر الخيمة المضاءة فتفاجئنا الكتلة السوداء الغادرة المحيطة بنا. تنقل خطواتنا بحذر مفرط وقد تشنجت أصابع أقدامنا، كأن كل خطوة ستوصلنا إلى الهاوية. حتى الأرض الحجرية تفقد صلابتها في الظلمة وتصبح "كل الأشياء مشبوهة... نشحذ الذاكرة فلا تنتج غير الظلمة...

لقد اعتدنا على المدن المضاءة. واتصل وعينا بما تراه العين أمامها. أصبح ضوء المدن جزءا من وعينا ومن العالم المحيط. ولشدة ما ألفناها نسينا وجود المصابيح وبدت الأشياء تنتج ضوءها الخاص لتوجد وتنكشف أمامنا. ألفنا الضوء بحيث أصبح الشيء الذي لا نراه هو العدم عينه. أحيانا يصعب الوثوق بأشياء رأيناها قبل قليل ثم حلّت الظلمة... أتذكر المرات التي تنطفئ فيها الكهرباء في بيوتنا.. تتوقف الأحاديث لأننا نخجل من محادثة شخص لا نراه. وتتحرك أصابعنا تلقائيا لتتأكد من وجود الأشياء التي كانت قبل لحظات.

في الأيام الأولى، وقبل أن نتعود الظلمة، تحولت إلى حاجز أسود بيننا وبين الأشياء والآخرين. حاجز اشد حضورا من المنطق و الذاكرة. فالظلمة لا تمسح الأشياء وحدها إنما تمسح ذاكرها أيضا.

بعد أيام قليلة من وصولنا إلى القاعدة دعانا الرفاق لإلقاء محاضرة عن المقاومة في لبنان. وتجنبا لاحتمالات الطيران بدأت المحاضرة بعد الغروب. عندما صعدنا إلى السطح لإلقاء المحاضرة في العراء وجدنا دائرة مفتوحة من رفاق افترشوا الأرض.

جلسنا بين حافتي القوس، وقبل أن نبدأ الكلام تفرسنا في الوجوه لنثبتها في ذاكرتنا قبل أن يحل الظلام... بسرعة عجيبة التفت الظلمة على تلك الوجوه وذوبتها في السواد. الفانوسان اللذان وضعا أمامنا ينيران أصابعنا والورق. وفيما عدا ذلك ليس غير السواد. كانت الكلمات تتعثر في فمي وتسقط ثقيلة، كما لو إنني القيها في حفرة الليل العميقة. بصعوبة حاولنا إقناع أنفسنا بوجود رفاق يصغون لنا بصمت.. نحنحة أو سعلة فالتة تعيد لنا وصلة الوصل بالجماعة التي نحدثها ثم يلتحم الصمت والظلمة حاجزا بيننا وبين اليقين. ننسى فنؤشر بيدينا وكأننا نؤدي مسرحية معقولة في مسرح خال ومعتم غادره الجميع لتكتمل اللعبة.

كلما قللنا من استخدام بطارية اليد اعتدنا الظلمة أكثر فأكثر... وبعد أيام سنخترق الظلمة بوعينا وذاكرتنا، فنستشف الظلمة ونرى الأشياء بعين الذاكرة. أو بتلك الحاسة الحيوانية المرهفة التي دفنتها المدن المضاءة.

عمل يدوي

كل حافز ضرير إلا إذا اقترن بالمعرفة

وكل معرفة هباء إلا إذا رافقها العمل.

جبران خليل جبران

"النبي"

جئت للجبل من مدينة كل ما فيها جاهز.. لا اعرف اسم البّناء الذي شيّد بيتي، لاأعرف زارع القطن الذي جنى مادة قميصي ولا الصياد الذي التقط بشبكته سمكة طعامي... بيني وبين الطبيعة وسطاء كثر، لا اعرف أسماءهم، ولا وجوههم ولا اعرف ما فعلوه من اجلي.. ولذلك رأيت الطبيعة للوهلة الأولى جاهزة مكشوفة كلوحة. أتنزه فيها وقد شبكت يدي خلفي واكتفي بالجمال الذي يصادفني وعنصر المفارقة فيها.. تستوقفني السوسنة السوداء فأتلمس جلدها المخملي الناعم وانفخ قطرات الندى على ورق البلخنون وأراقب طويلا احتفال الحشرات بأزهار الخوخ الجديدة، وأطلق على الأشجار والنباتات أسماء من عندي: (جندبه الماء، مزمار الراعي، الترغولة، نجمة الحصاد». اجمع عند فراشي بعضا من غرائب الطبيعة ومفارقاتها: حصاة تشبه سمكة، وغصنا يشبه تمثالا لـ (جياكوميتي) ودرنة من شجرة مريضة تشبه سلحفاة... باختصار كانت الطبيعة لي ترفا وليست حاجة...

لكنني خلقت من جديد وأنا ابدأ بخلق الطبيعة الصغيرة التي تحيطني.. بدا الأمر وكأنه لعبة مستحيلة.. حين ذهبت مع رفيقين إلى غابة قريبة نحمل عدة التحطيب. قائد فريقنا حطاب سمع من والده الفلاح كثيرا من النصائح حول كيفية قتل الأشجار.

كنت احايله واثنيه لأنني لم اعرف بعد برد الشتاء، مازالت الأشجار بالنسبة لي قيمة جمالية لذاتها وليست قيمة استعماليه. ولكن في النهاية امتطى ظهر شجرة. وبعد أن استقر وتوازن بدأت اسمع صرير المنشار الحاد...

– والدي يعد قطع الشجرة بالمنشار كفرا.. يقول انه يتلف نهاية أليافها فلا تنبت ثانية.

... صرير وانين وشخير ذبيحة، قضقضة عظام، ثم عصف ريح.. وهوت



شجرة قتيلة بأوراقها المنثنية عكس المسقط وثمارها الخشنة. وعبق الجو برائحة الدم الحليبي الحاد.

حين حمل الطير ليبدأ بتقطيع الجذع التفت الي أنا المذهول أمام برود ما سيفعل:

– والدي نصحني عندما بدأت: لا تحطب بهذه (ويشير إلى عضلة يده) إنما بهذه (ويشير بإصبعه إلى رأسه). ويقول: قلب الخشب عشرين مرة واضربها ضربة واحدة... فليس المهم كثرة الضربات، إنما أين تضرب. ولذلك ينبغي أن تعرف نقطة ضعف الشجرة ومسرى أليافها.

وما أن تمسك الطبر وتتهيأ للضرب حتى يوقفك المعلم:

– هذا أول خطا.. ينبغي أن تكون وقفتك ثابتة.. قدم إلى الأمام وأخرى إلى الخلف... كما لو انك تسدد بندقية. وجسمك مائل قليلا عن الموضع الذي ستضربه، وقبل ذلك ينبغي أن تتأكد من ثبات ما تضربه...

عرفت من أستاذي علم العتلات خلال عملية رفع الطبر وإسقاطه... كنت أراقب العملية جانبيا لأحمي عيني من الشظايا المتطايرة يمينا وشمالا: يتسامى الجسد بوقار مع ارتفاع الطبر على صوت شهيق حاد ومع الزفير يهوى بجموح

فيسمع ارتطام شفرة الطبر بعظم الشجرة اللين... يتصلب الذراع وتلتوي عظام الكتف وتتخدر الأصابع ويتشقق باطن الكف مع التمرين الأول... لكني نسيت كل آلامي عندما سقط إلى الارض أول غصن قطعته. بذلك سجلت أول انتصاراتي على الطبيعة... خلال وقت قليل أصبح التحطيب ملجئي. كلما احتدمت روحي وصعدتها رغوة مرة، أنزع الضيق عن صدري بحركة الجسد العنيفة وأصبه على جذع الشجرة. وبعد ذلك يخف جسمي وقد تعافى وحلّ فيه تعب مبارك.

قبل أن أتخرج حطابا بدأت أول تماريني كخباز. في الأيام الأولى راقبت رفاقي الواقفين على التنور بإعجاب هارب.. لقد أعادوا إلي صورة من طفولتي: عندما كنت انتظر حصة أهلي عند خباز المحلة. ودائما كانت للفرن واجهة جميلة للبيع ودهليز بشع للعمل. في الواجهة يجلس صاحب الفرن أو ابنه نظيفا هادئا تحيطه الآيات القرآنية المؤطرة وقطع السجاد الفارسي... ومن شباك خلفه يبدو الشغيلة المنهمكون.. يسعرون الجحيم ويصنعهم من نار ودقيق دخان.. مخلوقات من نحاس مصهور، لن تأخذ أبدا شكلها النهائي. وعند تلك الفوهات المستعرة نارا وريحا يؤدون رقصاتهم المتناغمة مع العاصفة النارية.. يداهمون النار وتردهم في حركة كر وفر لن ينتصر فيها غير الرغيف... أحيانا يتعبهم الصراع فيخرجون إلى النافذة ويطلون علينا بوجوه حمصتها النار واختلط فيها العرق والدقيق. وقد اسودت وجناتهم وتقصف شعر شواربهم... وكنت أتعجب حين أرى واحدا منهم خارج الفرن، مفرط الأناقة، خرج إلى الشارع ممتلئا بحريته وببرودة الهواء المنعشة خارج الفرن...

هنا ليس للفرن من واجهة غير الغابة والجبل وليس للخبز من بائع غير الشارين، وهم عماله أيضا... لقد بددت عشرة أرغفة من خبز رفاقي خلال التمرين الأول. ولأول مرة رأيت عن قرب العجين المفروش على جدار التنور يتطرز بالفقاعات، ثم يتلون شيئا فشيئا، بلون الخشب الأبيض فالذهب فالنحاس.. ويعبق الجو برائحته الشبيهة برائحة الحياة الأولى حين قال الله: «لتكن هناك ارض!».

في ١٩٨٢/١١/١٥ احتفلت بأول رغيف صنعته بيدي... أخرجته من التنور بفرح غامر، كأني اصطدت بعد فشل متكرر، سمكة ذهبية من الجحيم. علقته في المطبخ بعد أن وضعت عليه توقيعي والتاريخ السعيد....

بعد أن حرثنا الأرض ونظفناها من الحجارة والأعشاب الضارة بدأت انثر بذور الطماطم من بين أصابعي على امتداد مروز ستطالها مدافع السلطة... كان البذار الأول بالنسبة لي فعلا خالصا لا علاقة له بالنتيجة.. فلم امتلك بعد ثقة الفلاح بأمانة بذرته ولا تلك النية الطيبة التي تلي التطهر و الصلاة حتى يأتي المحصول مطابقا للبذار.. كنت القي البذور جامدة إلى الأرض بلهو بارد دون أن اربط البذرة بشكل الشجيرة الآتية. ولذلك لم امتلك حرية التفاعل بين ذات الفلاح وموضوعه: الحقل.

... نسيت الحقل والبذار حتى جاء من يخبرني بأن براعم الطماطم شقت الأرض.. ذهبت رأسا إلى المروز التي بذرتها وركعت على الأرض.. فرأيت كلماتي النباتية المضطربة وقد تفتحت على سطور الأرض: صغيرة طرية مزغبة ندية. همست لتلك البراعم كلمات لا أتذكرها وأنا الصق جبيني وقامتي بالأرض كأنني أريد أن أنمو مع هذه النبتات. لم أكن واثقا بأن هذه البراعم من قريحة تلك البذور اللاهية التي ألقيتها للأرض ذات يوم...

وأنا أسجل في ذاكرتي يوميات هذه البراعم دريت أني أجسد الزمان في شكل ومكان محددين. وشعرت بذلك الخلود الهادئ الذي يمتلك الفلاح وهو يرتبط بحقله ونبتاته و بهذه النبتات من خلال الأرض.. كأني حملت تويجها على واحد من أعصابي وسقيت أوراقها من عرق جبيني.. لذلك كنت اطرد البغال والأبقار السائبة بالحجارة والصراخ العصبي. وكلما سمعت أخبار عن تقدم عسكري باتجاه مواقعنا اشد على بدن بندقيتي واهمس: «لن يأكلوا ثمار ما زرعناه!».

وأنا أتمرن وأمرن يدي على العمل اليدوي، كنت أوالف بين ثقة الله بحلمه حين قال: «لتكن هناك...» وبين عمل الفلاح الصبور وهو يحقق ذلك الحلم . كنت

انسق الطبيعة وفق هواي: أرى ساقية ماء تمتد من النبع حتى حقل الطماطم وارى الثمرة في قريحة البذرة وشجرة الجوز وقد تحولت راحة لسريري الصيفي... ومع متعة الله بأمره، امتلكت متعة الفلاح وهو يسرب أمر الله من رأسه إلى أصابعه.. تتوتر إرادته وهو يأمر المادة بأن تتكيف ويتوتر عقله وهو يعرف جوهر المادة وصلابتها. تتوتر عضلاته وهو يبدأ بتنفيذ أمر الله. تستلم أصابع الإنسان الذكية البارعة أمر العقل وتبدأ عملها فورا فتضغط المادة الجامدة وتدغدغها وتلويها. بالمقابل تقاوم الصخرة مكر الأصابع لتحتفظ بشكلها الأزلي. تشد نفسها وتتماسك وتعاند، لكنها في النهاية تتعب من عفتها وتستسلم لدغدغة الإنسان القاسية الموصلة وتكيف نفسها لهواه.

منذ أن خرجت من شرفة المتفرج إلى حقل الفلاح الفاعل بالطبيعة بدأت اكتشف انسجاما جديدا في فوضى الجبل والغابة. فالبراعم تنمي نفسها من تحت التربة المفتتة العطشى أو في مياه الجليد الذائب ستختار مكانا وعلاقة مع عالم النبات الرحيب.. لقد رأيت الأرجوان يتفتح قبل أوراقه على خشب شجرة قديمة والنرجسة الصفراء تخرج من شقوق التربة الحمراء وبين الصخور الفضية.. في البداية قلت " أخطأنا المكان "، لكن بعد أن عرفت أسباب الاصطفاء أخضعت ذوقي لمنطق النبات وخياراته. بدأت اعرف جمال الأشياء البدائي الصاعد من جذورها والنابع من حياتها الداخلية وأفعالها الهامسة فضلا عن الجمال الذي أضيفه عليها من شرفة المتفرج.

عندما أغربل أشياء الطبيعة وأصفها من جديد خلال العمل اكتشف عملي في الطبيعة واراها تتكون أمامي بعد أن كنت أتلقاها جاهزة في بيت أمي. ارفع الفأس بوجه الصخرة وارى شكلها الآتي كامنا فيها مثلما كمن موسى في الحجر الذي رآه (مايكل أنجلو)، ثم أبدا النقر على الحجر.. وقبل أن ارفع الفأس وانقر على الصخرة علي أن اعرفها كصخرة، وربما سأتعرف عليها بالتعامل.. بدأت اعرف بعد أن كنت أحب. ونسيت التباهي بمعارفي حين بدأت العمل. فقد امتد بيني وبين جدي القديم الذي صنع حربته من حجرة مدببة خيط العمل القديم والخبرة المتوارثة. وما كنت ادري كيف تغيرت، أنا نفسي، خلال

السعي الرتيب الموصول لتغيير الطبيعة وفق هواي.. تغيرت حركاتي وأصبحت أكثر ليونة وبراعة. وتبدد يباس عضلاتي واستيقظت حاسة اللمس في يدي المتقرنتين من الفأس والطبر... لقد نهض جدي الفلاح القديم في داخلي والى جانبه الكاتب الذي يرى الفلاح ويمجد عمله.

نوكان: العيون التسعة

مهما بحثت في الخارطة العسكرية لن تجد إشارة للوادي الذي بنينا فيه مقراتنا. حتى الاسم (نوكان) الذي أطلقناه عليه يعود لواد آخر. فلا اسم لوادينا، لأن الإنسان لا يبذر الأسماء على أماكن لا يحتاجها...

مقراتنا نحتت على رفوف الجبل وثناياه بلا فسحات. لذلك اعتاد الرفاق أن يتجولوا ذهابا وإيابا فوق السقوف في حركة موصولة تبعث الدوار. المقرات تربطها أخاديد خطتها أقدام المقاتلين لا تتسع إلا لسائر واحد...

في الأيام الأولى كنت أراقب السائرين بدهشة وخوف: كيف يمكنهم السير بهذه الخطوات السريعة؟! أقتصد في التنقل إلى أقصى حد متكئا بيدي على الجبل وخطواتي متصلبة حذرة كأني أسير على حبل... الطريق لا يحتمل حتى زلة قدم واحدة فوق ذلك الوادي السحيق الذي يدوي السيل في أعماقه. أصعب ما كنت افعله في الأيام الأولى هو الذهاب للمرحاض المعلق على حائط عمودي. أمازح رفاقي متسائلا: ألا يسقط الإنسان إذا ضرط؟!

كنت أحتضن بذراعي جذع الشجرة التي أسند اليها حائط المرحاض.

على يمين الوادي يقع جبل (هلشو) متواضعا شابا بين الجبال الشامخة الهرمة.. سطوحه هينة لينة التقوس. ولذلك اختارته قطعان الماعز ساحة لهو ومزاح... اسمع الجرس المعلق في رقبة العنز القائد وهو ينغم الفراغ برنينه ويأتيني كقفزات صغيرة فوق سطح الهواء اللين. لقد شط العنز المشاكس عن وحدة القطيع وراوده الخوف لحظة حين رأى نفسه وحيدا، لكن رنين الجرس مس أذنه الراعشة فلحق بالقطيع. وراء هذا الجبل وعبر النهير الذي لا نراه

وتعرف وجوده جبل يحاذي مامند، ربما كان في أساطير الفلاحين شقيقته أو زوجته.

سوق المهربين

خلف جبل سرشيو سهل مفتوح متموج هو الحد الفاصل بين إيران والعراق.. في هذا السهل يقع سوق المهربين الخارج عن سلطات الدولتين.. هناك يجد الإنسان كل ما يخطر على باله في دكاكين رثة من الصفيح: أجهزة فيديو، أجهزة تسجيل بحجم علبة الكبريت، حاسبات وساعات لها ذاكرة الكترونية.. من يصدق أن هذه الأشياء التي أنتجتها حضارة المدن، وصلت إلى هذه الجبال الجهمة على ظهور البغال!؟

مع الساعات الالكترونية والعطور الفرنسية وأقمشة الدسكو، تباع في سوق (قاسم رش: قاسم الأسود) القنابل اليدوية.. دفاعية وهجومية، رشاشات من كل نوع وحسب طلب المشتري، للإغتيالات داخل المدن أو للدفاع عن الممرات الجبلية، من حلف الناتو أو حلف وارشو... هاونات ٥٩ أو ٦٢... للمزاح سألنا البائع الفارش بضاعته على حصيرة:

– هل لديك دوشكات؟

– ... حتى إذا أردت دبابات، لدينا بعض من مخلفات الجيش الإيراني. المهم أن تدفع!

المقاتلون من مختلف التنظيمات يعدون هذه المنطقة عاصمتهم. يتجولون فيها بأسلحتهم وهم يكرزون حب البطيخ. هنا يعلقون بياناتهم ويأخذون الصور التذكارية التي ستطبع عند استشهادهم. في هذه السوق رأيت واحدا من مهربي السلاح يجرب رشاشا من نوع (برتا) أمام مشتر مضطرب مسحور... ببراعة أطلق المهرب صليه باتجاه شق جبلي فدوت الطلقات وسحبت خلفها صفيرا كصرخة لا تنادي أحدا... فجأة خرج من شق الجبل راع غاضب أخذ يصرخ:

– هيه! أنت يا مطلق الرصاص! خير لك أن تجرب سلاحك على تلك الربية

العسكرية بدلا من التمرجل على خرافي... هذا الحمل (ورفع الحمل الصغير من صوف رقبته) يساوي عشراً من هذه الرشاشة التي تتباهى بها.

... كثيرا تحدث هذه الشجارات، لأن المهربين ينظرون إلى الرعاة والمزارعين بوصفهم مخلوقات مدجنة استبدلت البندقية بمذراة أو عصى. وقد حولهم الاستقرار من ذئاب إلى كلاب عواءة لا تعض. لذلك يدخل المهربون المزارع، ويقطفون الثمار وهم على ظهور البغال الراكضة بتهتك الغزاة. ويستقبلهم المزارعون بحذر وغيض، لأن المهربين اعتادوا نهب النساء من المزارعين للتمرجل أوالتحدي. وتركوا في كل قرية صبية حزينة تندب بغناء حزين الأهل البعيدين وتهدهد طفلا بجانبها.

لا تنقطع بغال المهربين عن (قاسم رش).. تأتي محملة بالبضائع وتعبر النهر من نقاطه العريضة التي تخف فيها قوة التيار، تفرغ حمولتها ويستريح المهربون يوما، يكافئون أجسادهم المتعبة باللحم المشوي والعصير المعلب ثم يغادرون بخبب طلق فتردد الوديان صدى أغانيهم المتكسرة الفاحشة. وبعد أيام سيعودون في رحلة جديدة، ومع بضاعة جديدة... وهكذا تتكرر المشقة حتى يقطع الثلج الطريق فيسبت المهربون على زوجاتهم الشابات.

على مساحة السهول المحيطة بسوق المهربين تنتشر البغال والخيول.. سارحة متراكضة خلف بعضها بعدو خفيف، تتمرغ على العشب، تضاجع بعضها وتصهل وتحمحم بلا انقطاع.. تبدو المنطقة من مزارع الكروم مثل مشهد أليف من أفلام رعاة البقر...

خلف هذا المشهد يقف جبل (سرشيو: الرؤوس الهائجة)، كجدار شامخ مال على الأفق السهلي، لا ينهض ولا يستريح. وأمامنا وفوقنا جبل (مامند) الأب والجد وراعي الحياة الصامت في هذه الأرض الخارجة عن سلطة الدولة.. يغلق مامند الوادي ويعزلنا عن اقرب الربايا الحكومية وعن ابعد البلاد: العراق!

غدر الطبيعة

دائما نستقبل المطر بطلقة دوشكا.. بها ننبه سكنة الوادي: «استعدوا فقد يأتيكم السيل»!

خضرة الوادي وسكونه وبرودته لم تنس ساكنيه أو عابريه تلك الكارثة التي حدثت في شهر مبكر على الشتاء. كنا نجوب هذا الوادي بحثا عن خروف ضال حين أشار لي احد الذين شهدوا تلك الكارثة إلى بقعة محددة في الوادي: صخور كبيرة تحطمت وحطمت أشجارا كانت قريبة من القمم اقتلعها السيل من جذورها وقذفها إلى هذا الوادي. وقد تكسرت الأشجار الهائلة والتوت وانحنت ذؤابات أغصانها باتجاه الجذور. وتحت الصخور والأشجار الثقيلة سحقت أشياء تمت لحياة ذوت. قمصان ممزقة وآلات طباعيه مسحوقة وحقائب.. هنا كان رفاقنا قبل أن ينفجر السيل عليهم فيجرف كل شيء حاملا الحجارة وجذوع الأشجار الضخمة. في لحظات السهو والأمان كانوا في خيامهم حين داهمهم الماء المجنون. بعضهم افلت في تسلق شجرة وتسلق آخرون السفوح العالية وهم يراقبون الخيام التي تركوها قبل لحظات تهوى تحت الماء الذي أخذ معه النقود



والأشياء العزيزة ودفاتر اليوميات وصور الحبيبات... ما من احد تنبه إلى ذلك الرجل الصبور الجالس فوق صخرة أحاطتها المياه.. لقد فقد ما هو أعز من كل ذلك، زوجته التي نامت فوق خيمتها أكداس الحجارة وجذوع الشجر. لم يصرخ ولم يطلب نجدة. فقد قالت له خبرته إن أوان المحاولات قد فات وان الحياة التي كانت قبل قليل بجانبه قد دفنت تحت سيل الحجر. لقد بقي صامتا وأصبح ذلك الصمت الجليل عادته منذ تلك الحادثة حتى اليوم، مؤمنا بحكمة الفلاح الكردي العجوز: «لا تبددوا حزنكم الجليل بالبكاء»!

نخرج من هذا الوادي المختنق بالأشجار والحجارة والنواح الكتيم. بعد استدارة مع النهر ينفرش السهل وسطوح التلال. في هذا السهل أقيم جسر من الخشب في الموقع نفسه الذي ابتلع فيه التيار واحدا من أجمل الشبان. لقد جاء هذا الشاب إلى هذا الموقع مع مفرزة قطعت جبالا ووديانا وربايا وانهارا. وما كان بإستطاعتهم عبور النهر السريع الجريان، لذلك تجاوزت المفرزة المقر إلى الجسر الخشبي الوحيد الذي يقع على بعد حوالي الساعة ليعبروا منه. لكن هذا الشاب النزق لم يتحمل تأجيل اللقاء وملال المسافة. فقرر أن يقتحم التيار مغرورا بشبابه وشبوب روحه. امسك الحبل وتقدم بضع خطوات وسط التيار... في البداية كان يبتسم وهو يغالب ضغط التيار ويشد الحبل بساعديه. فجأة ارتفع جسده وانفصلت قدماه عن قاع النهر الزلق. واندفع جسده مع التيار طافيا متلويا كقطعة قماش. رفاقه على الضفة مدوا حزمة من الأيدي لإستقباله. تبدلت سحناتهم وهم يتلبسون الخطر الذي سيودي بحياة رفيقهم. إقتحموا النهر فردهم الماء إلى الشاطئ. حاولوا إلقاء الحبل إليه وهم ينادونه، لكنه لم يسمع نداءهم.. فقد جحظت عيونه وهو يقيس القوة المتبقية في يديه إزاء هذا التيار الداوي. لقد سحره ماء الشر وما عاد يسمع شيئا. للحظات يتلفت إليهم كأنه يسأل عما إذا بقي لديهم ما يفعلونه... وبين الذهول والعجز افلت الجسد العالق بالحبل، تقلب مع التيار غاص الرأس وارتفعت الساقان، غاص الجسد وطفا لحظة إلى السطح في لبطة أخيرة ثم انحلت قواه وأصبح جزءا من التيار... دار مع النهر دورة ودخل شقا بين الصخور، دوم ثانية بين الأغصان المعرشة وسقط

مع الشلال، ولمع شعاع الشمس على أسنانه البيض وعيونه المدهوشة... في النهاية تباطأ الجسد حين انفرش الماء قرب قرية... كانت النساء يغسلن الملابس بمرح ويخبطنها على الحصى الصقيل. حين أشارت واحدة منهن إلى الجثة. نزلن لها وتشابكت أذرعهن حتى التقطنه. نزعن حمالات الرصاص عن أكتافه المتعبة، ومددنه على الحصى البارد المبلول وخلعن عنه ثيابه.. فوجدن في جيوبه رغيف خبز وكتاب (دروب الجوع)، طبعت أحداهن قبلة على جبينه البارد وأغلقت بإصبع مرتعشة فمه وعيونه المدهوشة... لأيام طويلة بقى الرفاق الذين انتظروه على الضفة الثانية يرنون للمكان بندم عصبي: لماذا لم نقطع الحبل؟! ولعودته التالية صنعوا جسرا من الخشب سموه باسمه...

في كل عام تسترد الطبيعة واحدا أو اثنين من مقاتلي الجبل إلى رحمها الحجري. ولديها وسائل لا تحد لاستيفاء الدين... قد تداهمه بعاصفة ثلجية في طريق ناء أو ينهار عليه الثلج في ممر ضيق.. قد تلويه مياه الربيع المندفعة من برد الثلج إلى حرارة الشمس، وقد تصرع ضحيتها عطشا في جبل اجرد... هنا يعيش الإنسان في مواجهة عارية مع الطبيعة بلا حواجز ولا أدوات. فيهرب من هول الطبيعة ويحايلها بتفكيكها ليحتوي أشياءها الأصغر من كفه: حصاة على عين ماء، حجر يتحلب منه الماء على ورقة رجراجة، سحلية طيبة خائفة عند مدخل مغارتها.. بهذه الأشياء الساحرة المسحورة تستغفل الطبيعة الإنسان وتغدر به في موضع لا يدريه. تفعل ذلك دون لؤم أو أسى،لأن الطبيعة خلقت قبل الإنسان ولم تضعه في حسابها. لا تراه ولا تحس دبيب أقدامه فوق جلدها... وقد واجه الإنسان الأعزل هذه الطبيعة الغادرة بوحدة القطيع ثم بالقبيلة ويواجهها ألان بالتضامن الواعي للمفرزة...

مسحورا بالشكل والحركة، رأيت ذات يوم كيف يفتح سكان القرية المعزولة طريقا في الثلج: احتشدوا عند مدخل القرية في طابور متزاحم نشيط. فركوا أيديهم وراوحوا لينشطوا دمهم ثم تقدم أولهم مخترقا كتلة الثلج بقفزات مرحة كالأرنب، ليكتب على الثلج كلمات متقطعة من فعل الإنسان وعاد إلى الطابور ليجدد حرارته. خرج الفلاح الثاني ليكسر الفواصل بين خطوات الأول فأكمل

الجملة... بعد ذلك تقدم رجلان، وضع كلا منهما كفيه على كتف الأخر وتحركا على السطر بخطوات جانبية... وهكذا حتى يتصل الطريق النحيل بالطريق العام الذي داسته البغال... رأيت أيضا تلك الحركة المتقاطعة بصرخات الحث والتوجيه لمفرزة تخترق تيار النهر بشكل سلسلة تستند كل حلقة فيها إلى ما قبلها وتسند ما بعدها... دائما تزيد الجماعة حجم الإنسان وتقويه في مجابهة الحجم اللامتناهي للطبيعة. ولكن الطبيعة في النهاية امرأة جامحة، لابد لك أن تروضها بأن تفهمها أولا وتتعامل معها وتعلمها. صعبة، لكن حوافها الجارحة تستجيب في النهاية وتلين لأصابع الإنسان.

لولان

في آخر نقطة شمال حدودنا مع إيران، على قمم لم ترسمها الخرائط بعد، تمر تحتها الغيوم فتغيب عنا الوديان والنهير الذي يتلوى تحتها، على الحافة وعند مسقط الشلال وتحت الثلوج التي تسرب ماؤها الى النهير، أقمنا معسكرا من ثلاثة مهاجع نوم ومكانا لإذاعة (صوت الشعب العراقي) ومخزنا للمؤونة. أقرب قرية الينا تبعد يوما كاملا من السير، وهي عبارة عن بيتين (يكماله العليا و يكماله السفلى). كل واحدة من القريتين عبارة عن بيت واحد، لوالد وإبنه يعملان في التهريب. بيننا وبين المهربين تحالف استراتيجي، فكلانا خارجان عن السلطات. الحرب التي امتدت على طول ١٤٠٠ كيلومتر من الحدود لم تدرك ولم تستطع وصول هذه المناطق الوحشيّة المنسية، لذلك هربت إليها الحيوانات الضارية ونحن معها.

هنا كنت أمارس ثلاثة أعمال في اليوم الواحد.

بعد الفطور أبدأ حطابا. الشتاء هنا في قمم الجبال قاس وطويل.

كان علينا أن نبتعد كثيرا عن مقراتنا لنبقيها متوارية بين الصخور وأشجار العفص. في كل يوم ننزل مع معداتنا (الطبر والمشذب والمنشار) وحين ندخل الأكمة تدور عيوننا المتوثبة وسط الغابة الشائكة فترتجف أغصان الأشجار



وتقضقض جذوعها وتتوارى خلف بعضها وهي ترى لمعة الشمس على حافة الطبر. مع ذلك تكشف عيون الحطابين عري الغصون والجذوع مهما توارت وراء مخابئها الورقية.

أقول لأبي وليد:

- لنبدأ المذبحة!

ندور حول الشجرة التي سقطت تحت مرآنا ونتحاور قبل أن نضع عدة التقطيع:

- لن نبدأ بهذه... لأنها ضخمة ولدينا جهد ووقت محسوبين.. و لا هذه لأنها عمودية سيستقر ثقلها على المنشار.. هذه الشجرة النحيلة ستفيدنا سقالة للبناء، وهذا الخشب للتنور...

لن نستغرق في النقاش طويلا. ستتجه أصابعنا نحو ضحية اليوم، شجرة متوارية وراء شجرتين:

- لنبدأ اليوم بهذه!

نمتطي الشجرة ونصك أسنانا ونهيء عضلاتنا للفعل تماما كما في لوحة

جـواد سليم (الشـجـرة القـتـيلة). يصـفـر المشـذب وهو يشـق الريح، فـتنقـذف الأغـصـان المورقـة ثم تهـوى كـريشــة وتتـرك في جـسـد الشـجـرة دوائر من دم ابيض... شيئا فشيئا يتكشف الجذع ويتجسد كتلة واضحة الحدود والثنايا.. لقد أصبح جثة بعد أن كـان شـجرة.. وهنا تبدأ العملية الثانية: تقطيع الجذع بالطبر.

..خلال الشهرين الذين سبقا الشتاء تركنا وسط هذه الغابة التي لم يصلها إنسان قبلنا ندوبا من مقابر جماعية للشجر. ننظر ونحن نغادر الموقع قبل غياب الشمس لنرى الأشجار مرمية حول منابتها السابقة مثل جثث مقطعة. لن نشعر بالذنب كما في أول الأيام، فقد صرنا قتلة محترفين ونعلل أنفسنا بأن ذلك من متطلبات الدفاع عن النفس أمام شتاء طويل وقاس. وان الزمن كفيل بمسح الجريمة حين تنبت أشجار أخرى في مكانها.

المهنة الثانية التي مارستها هنا هي ملقم دوشكا في موقع للدفاع الجوي يعلو موقعنا بساعة من الصعودالحاد، ثم في نهاية الصعود وعند قمة القمم حفرة بين بضع شجيرات. هناك وضع رشاشنا العتيق من مخلفات الحرب الثانية. رفيقي في الموقع جالس خلف الرشاش يراقب السماء المفتوحة على امتداد البصر. في أية لحظة ستنشق هذه السماء الصافية بخيط من سحاب أبيض وفي نهاية الخيط الإبرة اللماعة، وهي الطائرة التي يفترض أن تقصف مواقعنا. آنذاك علي أن أحرك شرشور الرصاص لألقمَ الرشاش... لكن مضت شهور دون أن تأتي الطائرات، فما من شيء هنا يستحق أن تصرف الجيوش عليه صواريخها. لذلك كنا أنا ورفيقي في الموقع نستعذب هذا الكسل والعزلة العالية وهواء القمة الرقيق الصافي إذ تصفر الريح واهنة على أطراف الغصون وتدغدغ وجهي بلمس رقيق.

كنت انزل للموقع لآخذ طعامنا فيسألني الرفاق:

– مالك مستعجل على الصعود لن تأتي الطائرات لمكاننا المنسي.

فأرد عليهم مازحا:

- لا احتمل التلوث في هذه المنطقة الصناعية حيث التنور والمطبخ، فقد تعودت على الهواء النقي في القمم العالية.

في حقيقة الأمر كنا قد وجدنا في موقع الدفاع الجوي مكانا مثاليا لقراءة روايات ... كنت أقرأ له رواية (ذئب البوادي) لهرمان هسه فيستمع إليّ ويده مرتخية على مقبض الرشاش، وبين آونة وأخرى يستوقفني:

- هششششش...!

يريدني أن أتسمع معه صوت صفير بعيد... تمر علينا الطائرة وتجتازنا قبل أن نطلق رصاصة، ودون أن تلقي علينا بعضا من ذخيرتها التي تدخرها للحرب الكبيرة.

أنبه هذا المستمع،الحائر بين رقعة السماء الممتدة وصفحة الكتاب في يدي، أنبهه للوصف الدقيق الشعري لوحدة بطل الرواية فتفوتنا الطائرة وهي عائدة بعد ان ألقت حمولتها على المدن. تجتازنا الطائرات كلما اقتربت مدافع الحرب من موقعنا ذاهبة عائدة ورشاشنا على صمته.

رفاقنا تحت كانوا يسخرون منا:

- ألا يصادف يوما أن تطلقوا ولو بضع رصاصات لكي نصدر بيانا نقول فيه " إن الطائرات هربت من كثافة نيراننا الجوية "؟

وقد جاء هذا اليوم.. لااعرف حتى هذا اليوم لم ارسلت لنا الحكومة العراقية طائرة بمروحة أمامية واحدة لتدخل منخفضة وبطيئة الى وادينا والطيار يلقي القنابل اليدوية بعد أن يفتحها بأسنانه دون تحديد.. هكذا نقل الذين رأوه رؤية العين. طائرة زراعية تستخدم لرش المبيدات الزراعية. هل أرادت حكومة العراق أن تسخر منا: هذا قدركم ام أرادت أن ترسل الطيار الى حتفه. ما من أحد عرف سر هذه الطائرة ومامن أحد في هذا الوادي إلا وأطلق عليها بضع رصاصات، بما في ذلك واحد كان يتبول. من موقعنا في قمة القمم أنزلنا فوهة الرشاش ورأيناها واضحة قريبة وسط لوحة التسديد، تحلق تحتنا قادمة الينا. في النهاية أصاب احد سكنة هذا الوادي محركها وربما الطيار البائس الذي

فيها. سمعنا شحطة المحرك ورأينا كتلة الخردة تنزل الى الأرض. في المساء اصدرت كل الفصائل بيانات تقول: "أسقطت مضاداتنا الجوية طائرة حربية..." دون أن تحدد نوع الطائرة.

في الصباح الباكر يوقظني الحرس السابق لأبدأ حراستي. يجرني مرتين أو ثلاث من بين ساقي إمرأة أتتني في الحلم وبللت ملابسي الداخلية فأصحو في جو الغرفة المزدحمة برجال ركنوا بنادقهم خلف رؤوسهم وتدثروا ببطانياتهم المقملة وأسنانهم تكز من أحلام التوترات التي رسبتها المخاطر والحروب في دواخلهم. أرتدي معطف الحرب الكاكي وأشد حولي حزام الرصاص ببطء وتثاقل وأضع البندقية على كتفي ناظرا إلى الرفاق الذين أحرسهم وقد استودعوني حياتهم وناموا... أزيح باب المهجع الداكن المدخن المزحوم برائحة الأجساد وغازات المعدة الفاسدة فتنفرش الطبيعة أمامي على رحابتها ولم تتحرر عيني بعد من زحمة المهجع... مثلي تستيقظ الطبيعة من ظلمة الليل الى لمسة الضوء الأول وقد اختلط البنفسجي بسماء فيروزية تحتها الغيوم تخط قمم الجبال المثلجة فتتحول من رذاذ الى ثلج، وتفقد بذلك حرية الحركة، و تدمج السماء بالأرض كأنها لم تسمع بعد أمر الإله السومري أنليل: ليكن بين الماء الأعلى والماء الأسفل جلد!

أنظر إلى الثلوج التي تكلل القمم وهي تسرب مياهها قطرة قطرة الى الأنهار في الوديان والى كل شجرة في الغابة. أنظر إلى هذه الطبيعة المتالفة المتناغمة و اتسمع للصمت المنغم المزحوم بالمعجزات اليومية وأقول بهمس: إذن الله موجود!

من البعيد البعيد أسمع هبدة انفجار.. إنه الإنسان المتحارب خلف سلسلة الجبال البعيدة. كيف يمكنه ان يتجاهل سحر الله وطبيعته حين يرفع الأغطية عن المدافع ويلقمها بقذائف الصباح؟!

أتملى المشهد حتى أنسى جسدي والرفاق خلفي والقضية التي أنا منها، أتملاه قبل أن تدق صافرة الإستيقاظ ويمتلىء هذا السفح بالحركة الدائبة التي تنسينا رحابة المشهد وتشغلنا بواجبات صباح آخر.

بارزان: مدينة الهدنة القلقة

في أي إقليم توجد تلك المدينة؟

فقال: في إقليم لا تجد السبابة إلية متجها.

السهروردي

أصوات اجنح جبرائل

حين فرض الثلج هدنة مؤقتة. جاء المقاتلون من قمم (روست) ومن سهول (حرير) و (بتوين) و (بشدر) ليلوذا بقصبة (بارزان) المهجورة.

الذين عبروا قمة (جبل شيرين) البركانية نسوا المدينة التي جاءوا لينشدوها، وحتى لو تذكروا، فأنهم لم يروا بارزان المتوارية إلا عندما لمسوها...

والذين وصلوها من السهل دخلوها والإصبع على زناد البندقية. كأنهم سمعوا انزلاقه الترباس البطيئة في مكان ما من هذه المدينة. وقال لهم هاجس يشبه اليقين:

- هذه المدينة فخ!

كانوا على حق لأن (بارزان) مدينة الهدنة القلقة بين مقاتلي الجبل وسلطة المدن، بنيت في لحظة استرخاء غذتها الهدنة: فعندما عاد البارزانيون، كان شيوخهم قد ماتوا في المنفى وخط الشيب فود شبانهم المقاتلين، وأصبح لهم صبيان لا يعرفون كردستان إلا من الأحاديث...

حين دخلوا بارزان ركعوا على أرضهم المقدسة. وقد أنستهم برودة الماء وخريره في عيونها المتدرجة إنهم عادوا لمدينتهم من بابها الخلفي الذي يطل على السلطة...

مدافعهم المحمولة التي أخفوها قبل الانسحاب صدئت في الكهوف الرطبة في جبل شيرين. ولذلك قبلوا الهدنة على إنها السلام. وحين مست جباههم الأرض، استيقظ فيهم ذلك الحلم المؤجل ببناء بيت...

السلطة الجاهزة دائما لتمدين «العصاة» التقطت لحظة الضعف هذه... فقبل أن يضربوا صخور الجبل بالمعاول حملت الشاحنات الحكومية اسمنت المدن إلى هذه الأرض. أرادت أن تشيد لحظة الاسترخاء تلك بجدران من الاسمنت وأبواب من الحديد وعيون من الزجاج.



بعد أن تغطت أرض الجبل باسمنت الحكومة وطليت جدران البيوت بالإصباغ الكيمياوية وأغلقت الداخل بالأبواب، قبل البارزانيون المفاتيح بديلا عن البنادق ودخل الشيوخ ليدشنوا بيوتهم الجديدة...

أم البارزاني هي الوحيدة التي لم تدخل بيتها.. ارتابت بالأسوار والأبواب الحديدية وزجاج النوافذ المشمع.. هاجس أم المحاربين قال لها «حذار من بيوت بنيت من طين الحكومة!»

وقد صحت نبوءة العجوز.. فما كاد البارزانيون يرخون أحزمة العتاد ويتمددون في بيوتهم حتى دوت مدافع السلطة.

ترك البارزانيون مدينتهم إلى الجبل... عند كل صعود حاد تركوا شيئا من أحمالهم الثقيلة و من تلك الأشياء الغالية التي ارتبطت بالبيوت التي تركوها. لم تبق لهم في النهاية غير البنادق وأكياس الطحين...

طال القتال حتى دخلت رائحة البارود في جلود البارزانيين. وتعددت الهدنات لتتيح للكلمات أن تجني ثمار المدافع.. وأصبحت الهدنة جزءا من نزيف الحرب وكسرا لديناميكيتها.

ومع كل هدنة يعود البارزانيون إلى مدينتهم دون أن يدخلوها أو يأمنوا بيوتها. لقد أصبحت بالنسبة لهم لحظة وليست زمانا. فجوة وليست مكانا... مدينة تنفي نفسها.. تدعو القادم إليها بغواية: تعال! وتهمس له حين يقترب: حذار!

مدينة مخيفة وخائفة... يغريها السهل فتمد ساقا حذرة. لكن قبل أن تمس ماء (الزاب) تتذكر غدر العدو فتعود للاحتماء بالجبل الأمين.

قبل أن أصل بارزان مررت بالقرى المنكوبة (شنكل وداوود كه وتيله) الواقعة وراء الجبل. لم يبق في هذه القرى غير الأرامل ينتظرن بأمل عنيد أن تراود الحاكم لحظة ضعف ويتذكر ربه فيعيد الأزواج لزوجاتهم أو في الأقل يعيد جثثهم. بدون الجثة والقبر يبقى الغائب غائبا، يراود الباقين في أحلامهم، شبحا يقف بين العين والمخيلة يفتح ثغرات الأسئلة ويبقي الأحياء لائبين.

في واحدة من هذه القرى شق الماء الجبل كما السكين. في قعر الشق بنيت البيوت على الحيطان. جلسنا لنستريح عند أرملة في ثلاثينياتها، مالت على رفيقي الكردي وقالت بتوسل:

- إسأل صاحبك العربي هذا، هل رأى، أو عرف من رأى زوجي، أسمه توفيق وهو بعمرك وبطولك.

رفيقي مال عليها ساخرا:

- من أين له أن يعرف وهو هنا معنا في الجبل؟

- مع ذلك اسأله فربما سمع شيئا من أهله!

- لم ير أهله من سنوات...

- مع ذلك اسأله....

لفترة طويلة بقيت أحمل معي سؤال هذه الأرمله حيثما ذهبت، أين ذهب توفيق وأي قدر جهنمي حمله الى المجهول.

في مكان يعلو القرية حدثني الشيخ الذي فقد عقله "منذ أن هبط الأبالسة من السماء" على قريته، حدثني وهو غير قادر على أن ينظر الي، إنما الى نقطة

ضائعة بين المقبرة والقرية المحترقة:

توقفت عقارب الحياة على تلك الدقيقة التي دخلت فيها السمتيات من (فم الذئب) ثم بدأت تهبط نحو القرية ببطء شديد كأنها غرزت في طينة الهواء. اجتاحت القرية زوبعة تشبه الكابوس.. أفلتت الأوراق من أغصانها والتبن من إهراءاته وتدفق التراب من الأرض بانفجار لولبي صاعد والتوت بعنف أشجار الحور تريد ان تفلت من جذورها الناشبة في ارض ماجت إعشابها، وأخذت الخيول المربوطة تدور وتصهل وتقرع الأرض بحوافرها، وخفقت ثياب النساء عاليا...

- إنها القيامة!

صرخت العجوز وهي ترى ملائكة الجحيم الحديدية تعصف القرية...

- لا، ليست هذه القيامة، إنما امتحان قبلها...

قال الشيخ، لكن صوته ضاع في هدير الطائرات. مع صراخ الأطفال والنسوة... تبعثر سكان القرية ركضا في كل الاتجاهات، لكنهم اصطدموا بفوهات تردهم من كل صوب نحو تلك الحزمة العزلاء في وسط القرية... عندما توقفت المحركات وحل الصمت، انقطع صراخ الناس وحل نحيب مبحوح وتوسلات تشبه نشيج الموتى..

- إنها القيامة بالتأكيد.. وما تزال الذنوب اكبر من هذا العقاب.. هذا غضب الرب.

ما من احد تجرأ على زجر هذا الشيخ الملحاح.. ففوق السطوح وقف مغاوير فرجوا سيقانهم كالفراجيل، وأصابعهم على الزناد. بدأوا يدفعون الحشد الذي أنهدت قواه نحو جوف الطائرات. ودفعت العجوز، الخائفة من شياطين الله الحديدية الى داخل الطائرة مثل صرة من خرق بالية... بدأت الطائرات ترتفع بينما كان المغاوير تحت يصبون الكيروسين على البيوت في عجالة قلقة.. وعندما أصبحت بيوت القرية مثل صف من القبور خط القرية لسان لاعق من نار، ثم اندلعت النار في البيوت.. آنذاك شهق الكدس المحشور في الطائرة بصوت

واحد، ومنع الجنود العجوز المجنونة من إلقاء نفسها من الطائرة إلى مهرجان النار المتدفق من البيوت وأبوابها وخشب السطوح.. هل كان هناك من يصرخ؟ لقد غطى المشهد ودوي الطائرة على كل شيء وألغى الوجوه كما ألغى الأصوات. الذين هرعوا الى الجبال هربا من " أبالسة السماء " ومنهم الشيخ المخبول الذي روى الحكاية، عادوا في الليل المتأخر وعظامهم تصطك من البرد وتدفؤوا على جمر بيوتهم المحروقة غير قادرين على التذكر، فلم تستطع ذاكرة الفلاح التي اعتادت على إيقاع الحياة البطيء وقلة المفاجآت أن تستوعب كل هذه القيامة استغرقت أربع ساعات فقط. الشيخ الذي روى لي ما حدث غاب عن وعيه وصحا غير مدرك تماما إذا كان الذي حدث فعلا أم هلوسة كابوس.

قبل المقبرة دهم صدري ذلك الهواء الثقيل الذي يحيط بالموتى.. لقد اختار أهل القرية المحترقة أجمل الأماكن لموتاهم: مساحة محدبة من الخضرة والرطوبة والسكون بين شجرتي بلوط تحملان اسم العاشقين (فرهاد) و (شرين). واختاروا اجمل الصخور واصقلها شواهد لهم. وفوق كل شاهد تركوا أكثر العلامات دلالة على هوية الميت:

للشبان الذين قتلوا في المعارك ضد الحكومات، تركوا مزيتة البندقية وزمزميه الماء وبضع رصاصات للخيار الأخير.

للشيوخ الذين ماتوا قرب محاريثهم تركوا زوادة الطعام وكيس التبغ والعكازة.

للشابات الباكرات تركت الأمهات تاج عرسهن الموعود.

وتركوا للأطفال الذين ولدوا أمواتا، مهدا خشبيا تهزه الريح بتوده،وتصرخ فيه العاصفة التي تبذل الفصول...

المفقودون يحومون أشباحا تقطع المسافة بين القرية والمقبرة ذهابا وغيابا، حائرون وحيروا عارفيهم بالمكان الذي سيستكينون فيه. أرواحهم لا تستكين وهم بين الأحياء والأموات، بلا قبور ولا بيوت...

عندما دخل القادمون من (بشدر وحرير وبتوين) وعبروا القرى نفسها وصولا

الى بارزان لم يفكوا أحزمة العتاد ولم تغادر عيونهم مواقع السلطة فوق جبل بيرس. ارتابوا بتلك المعادلة المقلوبة:

السلطة علقت مواقعها في قمة الجبل، بينما سكن «العصاة» تحت روابي السلطة!؟

على إيقاع خطوات المقاتلين، الذين وصلوا في ذلك الغروب الأشعث، استيقظت التواريخ بأحداثها ووجوهها في المدينة المهجورة:

- هنا، في هذا البيت المرتفع الذي تكلل شجرة التوت الأبيض شرفته، سكن الشيخ احمد البارزاني!

... كل الذين يأتون للمشورة أو التبرك ينزعون أحذيتهم، قبل أن يصلوا العتبة، وينتظرون طويلا حتى يسمح لهم بالدخول، ثم يقفون في الجانب القصي مربكين من فترة الصمت. ولن يقولوا كلمة حتى يسألهم أو يسمح لهم بالحديث. وربما لن يقولوا شيئا أبدا. فقط يتبركون بتقبيل يده الممدودة قليلا. وقد يكتفون بالنظر إليه ثم يعودون لقراهم لتنهال عليهم الأسئلة:

- هل رأيته فعلا، أم رأيت عتبة الباب فقط؟ كيف يبدو عن قرب وكيف تبدو الهالة حوله؟ قبلت يده؟

... من خيال الفلاحين واحتمائهم بالأسطورة وضعت هالة الشيخ احمد البارزاني. إليه يحيل الناس كل المعارف التي كسبوها من معاركة الأرض:

- الشيخ احمد نصحنا بعدم النوم تحت شجر الجوز لأنه يسبب صفرة الوجه.

- الشيخ احمد حرم قتل الحية الرمادية المربعة الرأس، لأنها طيبة عاشت على شجرة ادم.

- الماء يعرف طرقه، كما قال الشيخ احمد، فلا تغيّروا سير الينابيع!

.. هذا الرجل الممسك بمفاتيح الجبل، كان مسكونا بحزن منفاه في الجنوب. ولكن له عين مسحورة تكشف وجه الأشياء الخفي... بنظرة واحدة من فوق دابته يستطيع أن ينتهك سر الحجر ويأمر مرافقيه:

- أزيحوا هذه الصخرة فخلفها كهف ونبع ماء!

وقد ترك (احمد) اسمه، الذي ينطق بمد الألف وتشديد الدال، على الأشياء التي مسها ذات يوم... على العيون التي شرب منها، والشجرة التي أكل من ثمارها، والربوة التي صلى عليها والمدينة التي سكنها ذات يوم وحامت حولها سلالته... لقد امتلك الأشياء لمجرد انه رآها أو مسها أو أطلق عليها اسما.

الشمس الباكرة مسحت آثار البارزانيين من قصبتهم.. غابت حكاياتهم الأسطورية وسكنات شيوخهم وملامحهم التي لن تتحقق. وتبدت مع الضوء وطأة السلطة التي تركت المدينة قبل أن يدخلها المقاتلون: الحقول الملغمة والأسلاك الشائكة التي تسلقت عرائش العنب وشظايا القذائف المنثارية التي غرزت أسنانها في لحم الشجر وعيون الماء التي ردمت بالكونكريت. وقد نسفت بالديناميت البيوت التي فاضت عن حاجة الضباط.. وعلى جدران البيوت كتب الجنود بعضا من بديهياتهم وما أحبوه وما كرهوه:

- ... أمهاتكم يا عصاة!
- غربة + عسكرية = شلعان كلب.
- الله يطول عمرك يا أمي!
- يا علي!

علي الساعدي

على جدران قصبة البارزانيين وخشب أبوابها حفر «الجندي المكلف علي الساعدي» اسمه بإلحاح متشائم:

تذكروا الجندي المكلف علي الساعدي _ من العمارة!

علي الساعدي - بارزان ١٩٧٨.

هنا عاش الجندي المكلف علي الساعدي.

تذكروا علي السا...!

لقد انغرس هذا الاسم في ذاكرتنا و احتل لحظات تأملنا. رأيناه على

صفحات الظلمة وسمعناه مهموسا في الصمت:

- علي الساعدي!

كثيرا بحثنا في الجدران وقارنا الخطوط نريد أن نكشف مع الاسم سرا مودعا للحجر. لكن علي الساعدي لم «يسقط!» أحدا ولم يهتف لأحد «يعيش!» إنما كتب شهقة عمره «آه يا أمي!» وعلامة استفهام بحجم رجل. كنا نسأل أنفسنا ونترك السؤال عائما بين الصخر والمخيلة اليسيرة:

- أين تراه الآن، أين؟

مع الاسم ترك علي الساعدي فراغا لصورة.. فقد علق في خيال المقاتلين وجها أليفا لشخص أكيد ترتج حوله الذاكرة:

- أين التقيناه ذات يوم؟

- كان يحرس الربية، هذا أكيد. لمن، وممن؟

لن يشغل نفسه بهذه الأسئلة العصية، فذلك لن يغير من واجبه _ القدر..

عند استطلاع الربية، أو في لحظة الهدوء المرهف الذي يسبق الضغط على الزناد، سيكون علي ألساعدي بالنسبة للمقاتلين فارزة صعبة ومربكة: «من يكون هذا في آلة النظام الذي نقاتله!»... يدور علي ألساعدي داخل سياج الربية ساهيا متساهيا.. فقد بلد الملل حذره منذ زمان. وتعب من حراسة سجنه على مدار عام كامل. تعب من انتظار الرصاصة التي ستقتله، لذلك افترضها نائمة أصلا في صماخه وقبلها يوم قرر: «ليس في هذه الحياة الذليلة ما يستحق أن يحميه من رصاصة!». هكذا أعلن وسامح قاتليه مسبقا، وسلم جسده اليابس لـ (العصاة) الذين سيختارون له شكل المقتلة وساعتها... لا يكره علي ألساعدي أحدا غير نفسه وزمانه النذل... يشتم نفسه كلما شتمه آمره وكلما أذل قال لنفسه: «تستاهل!» لأنه لا يعرف اتجاه الخطوة التي تلي الغضب.

لم يكره علي الساعدي عدوه و لم يحبه.. فقد اخذ الولاء للواجب عند هذا الرجل الجالس وراء سلاح الإسناد محل الحقد تماما. وحتى عندما يطلق النار على شبح فانه لا يحتاج إلى العزيمة والسخط إلا ما يكفي للضغط على الزناد..

وخارج هذا الواجب لن يطلق النار على عدوه حتى لو وجده نائما تحت شجرة... وما دام قد نحى الضغينة والحذر والتفسير فقد امتلك فائضا من الوقت ليسرح في الخيال دونما ضوابط:

في لحظة تسبق الغروب والرماية يستوقف علي الساعدي الزمن ويسأل عما يفعله الأصدقاء والأحبة في هذا الوقت داخل المدينة التي نسيته. يسترجع لحظات الأمان حتى يكاد يلمس حواف الصورة... وفي وقت الفراغ الطويل يسلي نفسه بأخيلة تتحدى الرقباء... فيحرك في الفضاء الذي بين عينيه صورة مثيرة لإمرأة شبه عارية... قد تكون زوجة الآمر الذي أذله. ويستمريء السعادة بأن يمني نفسه ويحزرها ببشارة كبيرة سيحملها البريد القادم.

... في فضاء الربية وسيولة الزمن الرتيب انتظر علي الساعدي وبإلحاح شيئا لا يدريه قبل أن تبتر الرصاصة حياته... بلا مجد وبلا بطولة ولا ضغينة دفاعا عن موقع يكرهه. ولن يترك غير حرز السلامة الذي علقته أمه في رقبته ورقم في سجل واسم محفور على جدار.

لقد عاش (علي الساعدي) مع المقاتلين شتاء الهدنة الممل، قريبا وبعيدا، وهما وذكرى، اسما أكيدا وصورة غائمة. وقد يلتقوه في أول المعارك وجها لوجه.. قاتلا أو قتيلا.

عندما اجتاح الربيع القصبة استهدف علامات وجود السلطة .. فقد نزت الجدران المهدمة ماء وبراعما، وتشققت السدادات الكونكريتية لتدوي الينابيع بمياه الثلج الذائبة، انفرشت السهول بحنطة كاذبة تجوبها الخنازير البرية والأيائل والدعالج. والتفت الكروم على الأسلاك الشائكة وانحنت أشجار التوت من ثقل ثمارها الريانة، تغطت مقبرة البارزانيين بالنرجس الأصفر ونبتت أعلى الورود وأبهاها على قبر الشهيد (حسن عبد الله) الذي قطعت السلطة جسده.

مع الربيع انتفخت خصي المقاتلين بماء الحياة وصدورهم بنار المجازفة.. لقد ضاقت بهم البيوت الشتائية المسودة من الدخان، فنفضوا بطانياتهم المقملة وذكرياتهم الثقيلة ومطوا صدورهم تحت الشمس استعدادا لرحابة السهول

وتمارين الشجاعة. وحالما شعروا بطلاقة مصائرهم في جوار الخطر، تملكتهم أريحية الرجال وإقبالهم على الحياة فتذكروا زوجاتهم...

نساؤهم في المدن والقرى البعيدة كن بانتظار وقدة الرغبة التي سرت إليهن على أسلاك الربيع المرهفة فاستجبن على الفور.. ذبحن اسمن الديوك وسفحن دماءها «فداءا لحياتهم الغالية». وطبخن أطيب ما يحبه الرجال الشرهون الذاهبون إلى الخطر، وبالسمن قلين كرات التمر «حتى تقويهم على صعود الجبال والنساء» وملأن السلال وذهبن إلى حيث الملتقى بلهفة مربكة.

دارت بهن الجرارات الزراعية باتجاه الطرق الوعرة لتتجاوز المعسكرات ودرن من وراء الربايا. تسلحن بالمسكنة والجهل ليخلصن السلال من مجسات جنود (السيطرات) وأسعفهن دهاء النساء المرائي وتلك اللهفة العنيدة للوصول مهما كلف الثمن...

الرجال الذين كانوا بانتظارهن ترقبوا الطريق من فوق الصخور العالية وهم يزيتون بنادقهم ويشمسون عدة القتال... توقفت أيديهم حالما رأوا من بعيد تلك الكتلة من ثياب موردة مذهبة.. وشوشت العواطف الحارة وضوح الصورة...

غاب المقاتلون وزوجاتهم في البيوت المهجورة والكهوف التي يتحلب الماء من حجارتها وفي العرائش. وربما ضيعت اللهفة الحذر من أعين الرقباء... وبين جولة وأخرى تلتقي النساء عند «برك الحريم» خجلات متوردات وقد تغطت عيونهن بماء رائق. وتهامست الأمهات منهن بتخابث:

– للمرة الثالثة... وأنت؟

وابتردن بالماء وهرعن ثانية لصدور الرجال الحارة...

وفي هجعة قبل الوداع مسحت واحدة منهن جسد زوجها بأصابع لينة حانية.. تلمست الزوايا الحادة عند كتفه والثنيات الصاعدة النازلة عند بطنه.. استعادت التفاصيل المنسية والتجاعيد المضافة واكتشفت ما فاتها: الشامات والثآليل وآثار الجروح والخطوط التي تركتها أحزمة الرصاص على دفتيه... رأت الماء القلق في عينيه ورفة جفنيه، سمعت عميقا صوت أنفاسه العميقة وهو يهدأ

تحت لمساتها وشمت رائحة البارود في أصابعه... ثبتت هذه التفاصيل عميقا في ذاكرتها وامتلأت بسكنات هذا الطفل العنيد المفطوم على البارود ثم نحت هاجسا لا تريد أن تسميه أو تتخيله وأغرقت وساوسها بالدعاء.

لم تطلب منه البقاء حين نهض ولم تحثه على الذهاب لأنها تدري انه ذاهب لا محال. ولذلك قبلت بنعمة هذه السويعات القليلة ممتلئة بها حتى الثمالة. لم يلتفت إليها حين أزاح الباب .. فقد انتزع نفسه بعنف من شراك هذا الجسد المعطر بالماء والعشب كما ينتزعها من حلم مترف لا يليق برجال الديناميت.

بعيدا عن النساء كان المقاتلون الأصغر سنا سعداء لأنهم لن يفتقدوا زوجة وأطفالا إذا ذهبوا إلى المعارك... لقد افترشوا الأعشاب الفتية وظلال الشجر وهم يلعبون بأسلحتهم تفكيكا وتزييتا وتركيبا. بالعيون النشطة الثاقبة تفحصوا صفاء السبطانة وتطابق الفرضة والشعيرة وجربوا لوحة التسديد بإطلاق النار على أهداف وهمية. وعندما لعلع الرصاص باتجاه الهدف فقدوا حذرهم من تلك الربايا فوقهم... تأكدوا من سلطتهم على الجبل حين أصبحت البنادق صالحة للعمل والطرق صالحة للمسير.

لقد تخلصوا توا من الأشياء التي تراكمت خلال المكوث في المقرات الخلفية: الملابس الإضافية، الأغطية، وسائد القش، الحقائب اليدوية.. كل ما يفيض عن حاجة المقاتل الجوال وزعوه بسخاء على رفاقهم الذين سيبقون في المقرات. وكلما منحوا شيئا خفت نفوسهم وتحررت من عبودية الملكيات الصغيرة.

تحشدوا حلقات وهم يودعون الباقين في المقرات دون تعال، إنما بنوع من الخفة المشاكسة..

ذهبوا دون ضجيج.. بلا حسرات ولا دموع.. قليل من التراب خلف خطواتهم الكتيمة، وقليل من الأخيلة والعواطف ونظرة ثابتة عند مواطئ القدم. وعندما صعدوا التل القوا نظرة الودا ع الأخيرة: للبيوت، للمعول والمحراث، للقدر الكبير وحجرات الموقد، لسقوف الغرف الواطئة التي تنسي السماء... للمكان الثابت الذي احتل المخيلة واحتواها، للجبل العتيق الذي لا يتقدم ولا يتأخر، للرفاق

المنهمكين بالمحاضر والرسائل المطوية، للإداري المقتر بالطعام والسخي بالأوامر، للكآبة البليدة التي تجعل الوجه شاحبا والنفس مكدودة كتومة.. للذكريات التي تقدمت الحاضر والقادم، للأحاديث المطوطة المدورة، للدفاع الساكن المستكين... لمدينة الهدنة القلقة.

بيوت

أزرى بأبيات أشعار تقاذفنا

بيت من الشعر المفتول يؤوينا .

الجواهري

من قصيدة (أم عوف)

أعطانا الشتاء أول إنذاراته: الزنابير نزلت من الأعالي الباردة قريبا من الأرض الدافئة.. وكان هذا إنذارا كافيا لكي نلم أجسادنا من رحاب الطبيعة ونتذكر البيوت... ولذلك ارتفعت حمية البناء. إزدادت لهفتنا إلى البيت كلما ارتفع البناء سافا فوق ساف... كنا نشيد كل ما في هذا البيت وننتزع مادته من جسم الطبيعة العصي.. وقبل أن نبدأ، سيذهب «علماء الصخور» ليتفحصوا جسم الجبل حتى يعثروا على حجر البيت القادم في واحد من جوانبه. وسيكتشفون لنا نقاط ضعف الصخور ومسار عروقها ومكمن السرة التي تربط الصخرة بالجبل... بعد ذلك تنهال الفؤوس لتنتزع صخرة قد يزيد عمرها على ألف عام.. تتدحرج وتجلجل مع سيل من التراب والشظايا...

البارزانيون القساة مع كل شيء، ارق الناس مع الصخور.

... يستعملون قلبهم وبصيرتهم مع صخور الجبل الوفية. ويتبعون حكمة تقول: «الحجر يعرف ويحب بعضه كالناس»... وهم يرفعون الحجر ويحطونه سيكتشفون مكمن قلبه وجانبه الأكثر ثباتا... وكلما تقاربت قلوب الحجارة تألفت أجسامها في ثبات عجيب دون حاجة لوساطة الطين.

... لا السيول ولا الرياح العاتية استطاعت أن تفرق الحجارة التي (والفها) البارزانيون حيثما حلوا خلال مسيرتهم الصعبة...

الشتاء القادم لم يمهلنا لكي نستخدم حنان البارزانيين على الصخور.. لذلك كنا ننزعها بالفؤوس أو نفجرها بالديناميت... وبعيدا عن الصخور تجري مذبحة أخرى: هناك تتالى نصال الاطبار وتحز المناشير في أزيز حاد عنق الشجرة فتهوى إلى الأرض منكسة راياتها الورقية.. سنصنع منها سقالات بناء... بعد ذلك نخلط مكونات الطبيعة الأساسية: الحجر الناري والتراب والماء والخشب لنشيد منها البيت الذي سيكون خندقنا في مجابهة الطبيعة.



عملية البناء تشبه رقصة جماعية تتجه كل الحركات فيها نحو مركز الكون: البيت.. أجمل ما في البناء ساعات النهار الأخيرة.. حين نلقى نظرة المجهدين على نتائج عمل يوم كامل ونزداد ألفة مع هذا البيت الذي حمل لمساتنا في كل جزء منه ليتحدى بها الطبيعة التي لا تقبل غير منطلقها الخاص.

.. ما عاد الجبل غريبا علي، فقد صنعت زاوية أمينة في جانب منه.. بسرعة رتبت في هذه الزاوية مكتبة صغيرة من صندوق ذخيرة فارغ. ومن مظروف قذيفة صنعت مزهرية لأقلامي. وعلقت حقيبة ملابسي في غصن ناتئ من سقف الغرفة.. لقد امتلكت حول فراشي أشياء تخصني وحدي.. أشيائي البائسة الأليفة التي وطدت صلتي بالمكان. طويلا استلقي على فراشي، اقلب كفي لا تلمس شقوقها والطين النائم تحت أظافري وابحث عن لمساتي في جدار الكوخ.. لأول مرة لا أجد بيتي جاهزا، إنما اصنعه بيدي وانتزع مادته من الطبيعة. لقد صنعت تاريخه الذي يمتد لبدايات الخليقة. لكأنني جئت معه في يوم واحد. لذلك تستيقظ فيه ومعه ذكريات طفولتي. ومع الحجر وأعمدة الخشب تقف أقدام الحكايات والأساطير.

أقف بباب الكوخ المدفون تحت تله تتصل بالأرض اللانهائية. أضع كفي على

إطار الباب فتتوحد على جسدي، الملموم من أمان الكوخ، كل مكونات الطبيعة المترامية المتنافرة المتناغمة: من تحت قدمي تتواصل سلسلة الجبال الهائلة بقممها المعممة بالثلج والغائرة في السحاب، وتحتي الوديان المصنوعة من برد وظلال، وأمامي تنفرش السماء البعيدة الواعدة. على شاشة السماء التي تشقها قمة (مامند) رأيت ولادة الزخة الأولى: سحابة رمادية تجمعت فوق القمة ساكنة تنتظر الزمان الطيب لتنزل إلينا. وقبل ذلك ترسل لنا نذيرا من رياح باردة مشبعة بالندى...

– تعال أيها المطر.. أريد أن امتحن بك جدران البيت الذي صنعته.

حركت الريح أطراف السحابة كما تحرك عباءة فارس من حجر... ادلهمت قمة (مامند) حمراء، بنية، بنفسجية.. فقد ابتلت بالمطر الذي لم يصلنا بعد... بعد دقائق ألقى الفارس عباءته فوق وادينا فمست وجوهنا غلالته الندية، ثم انهمر المطر... كأن كل صمامات السماء انفتحت مرة واحدة على هذا الكوخ الوحيد الذي نحتمي به... تحفر سقفه الطيني بشابيبها، وتلطم جدرانه بسيل الماء النازل من الجبل. نراقب الجدران ونتلمسها ونعذرها مقدما... نغذي مدا فيء التنك بقطع الحطب المبتلة وننفخ النار بجهد قلق.. نريد أن نجفف جوف كوخنا. لخمسة أيام متتالية لم يتوقف المطر.. ابتل كل ما حولنا: الجدران،الارض الافرشة، ورق. نزداد ضيقا وعصبية لأن عظامنا ابتلت وتحلب الماء البارد من كل ذكرى مضادة أردنا أن نقاوم بها السيل... نزيح أفرشتنا المبتلة إلى الزوايا التي لم يصلها الماء بعد ونتطلع إلى السقوف بقلق، ونضع العلب والصحون حتى لا يسيح تحتنا الماء. ندعم السدود الترابية حول كوخنا وندك السقف بالمدحلة ثم ندخل إلى جوفه ونواصل حوار التناغي مع الكوخ الذي يحتمي بنا ونحتمي به... في اليوم الخامس هدا الدوي فغادرنا أكواخنا.. في الحال مسّ الدفء أرواحنا المبتلة. لقد انشق سقف العالم الرمادي وظهر أول شعاع من الشمس ليربت على سطح كوخنا الطيني:

– أهنئك.. ربحت!

لم يتطاول كوخنا غرورا ... بقي على حاله متواريا بين فسحة الأرض وجدران الجبل.. ينفث خيط الدخان الرقيق كعجوز لا ضغينة في قلبه على قسوة الطبيعة لأنه يعرف حكمتها.

... بعد المطر بأيام أعطانا الشتاء إنذاره الأخير.. فقد نزلت عصافير الجبل وطيور الحجل، حتى الذئاب والدببة هربت من غيمة جليدية شعثاء تسللت وراء الجبل. وقبل الثلج مس أصابعنا دفء مريب، ثم بدأ الثلج بالنزول. لم يقل لنا كوخنا الدافئ شيئا عما يجري في الخارج.. فقد تحركت الجرذان في سقفه نحو الزوايا. عندما غادرنا حجرة الوضوح إلى الخارج في الصباح باغتنا الثلج الذي طوقنا تماما: بياض على الأرض،فوق الحجارة. بياض يكلل الشجر ويتمدد على الأغصان، حتى شعيراتها الدقيقة . على الملابس التي نشرت فوق الجبال. على الحطب الذي جمعناه لمقاومة الثلج. فوق سرج البغال وعلى أطراف آذانها . فوق شوارب الحارس وفرضه التسديد في بندقيته... على نشرة أخبار البارحة وصحون الطعام. بياض يلغي حدود الأشياء وألوانها ويكتم الأصوات.. كان العالم كله مسح بممحاة الثلج. لم تغب الأشجار وحدها، إنما جذورها أيضا وحتى ثمارها الآتية في الربيع.

خلال الحراسة المسائية تجولت على الثلج الرخو.. أحس خطواتي حتى النهاية الصلبة وأحس بالثلج يخنق صوت خطواتي كأني أسير على الأرض التي تسبق الحلم. التفت لأرى آثار خطواتي فتبدو لي علامات زمن قديم لإنسان مرّ على الخليقة قبل أن يلغيها الثلج... للحظات اطل القمر من وراء الثلج والضباب فكشف نسالات عالم ثلجي ينهار. وشفت الأشياء بضوء ينضح من مساماتها.. ضوء بلوري يكشف روح الأشياء وأحلامها الأخيرة. صحوت على صفقة جناح بومة حطت على غصن قريب بسكون وحكمة.. وفوق طبقات الثلج العالية، فوق فوق، كنت اسمع نعيب الطيور المهاجرة إلى مناطق الدفء في دنيانا. أتوجد مناطق خارج هذا البياض المطبق؟!

إنتابني حنين غريب في ساعة الحراسة الى جوف كوخي الدافيء. وانا أنظر اليه من خارجه أتلمس امتلاكي لهذا الكوخ. أحرسة من تلة فوقه وأربت بعيني

على سقف هذا الكوخ وأراقب نفثات الدخان الرقيقة من مدخنته وضوء الفانوس المتسلل من تحت بابه. فيه ينام رفاقي وقد سلموني حياتهم. شعرت بالوحدة التي عاشها صانع العواصف طوال عشرين عاما من سنواته الأربعين.

تعب جوتيار من حياته كمهرب وأراد أن يستقر مزارعا في قرية أحب واحدة من بناتها ليصير مزارعا. لكن تلك القرية وما جاورها قابلته بالنبذ:

- إنه منحوس يجلب معه العواصف السود حيثما حل.

يراقب جوتيار من مغارته العالية أكواخ قريته يعذبه حنين دائم لبيت دافيء مضاء وحديث خافت بين ساكنيه وزوجة منحنية على طفل في مهد خشبي. منجذبا برائحة الخبز يقترب جوتيار من قريته:

- ها أنا أتيت ولم تأت العاصفة معي.

لكن ما ان تنبح الكلاب وتركض الجرذان في سقوف الأكواخ حتى يهرع الناس إليه ويتوسلونه:

- أشجارنا ما تزال طرية العود، ولدينا حملان ولدت توا لا تتحمل برد العواصف. إبق بعيدا عنا وسنحمل لك الزاد الى مغارتك البعيدة!

ولذلك تحتم عليه أن يقضي نصف عمره منبوذا يساكن الذئاب والدببة مغاراتها ويراقب مثلي كوخا دافئا تحته.

حين غادرت العراء بعد الحراسة شعرت وأنا أدخل الكوخ الذي بنيته بيدي بأمان قديم داخل هذا الرحم الذي يحمينا بحزمة من أعصاب وقبضة عنيدة من الدفء، يخوض مع الثلج معركة هادئة وضارية.. يقاوم ممسحة الثلج القاسية ليبقى عينات قليلة من أشياء العالم وكائناته. على جدرانه وفوق أرضه وفي زواياه ملابس وفؤوس وخشب ووجوه.. اسميها بصوت عال واستمع بلذة لنفسي وأنا أرى الأشياء التي تأتي إلي.. أرى الفأس واسميها فأسا والحائط واسميه حائطا وحقيبة الصوف واسميها... كنت أحس بجهد الابتكار الأول وأنا انتزع الأشياء من العدم الأبيض الذي يهيمن على ذاكرتي خلال الحراسة، واكتشف وقع الأسماء الصلب وأنا أتحدث لنفسي، واشعر بهذا الجهد الذي بذلناه، أنا

وجدي الكوخ، لأننا أبقينا الأشياء وأسماؤها وأحس بحيوية الأشياء وهي تقاوم طوفان الثلج محتمية بهذه السفينة الحجرية في عناد صامت لتوصل لأرض السلام القادمة رموز الخليقة التي ستبدأ من جديد.

ونحن في داخل الكوخ كنا نسمع في نشرة الأنباء عن العاصفة الثلجية التي غمرت العالم وقطعت طرق الناس وعزلت مدن العالم عن بعضها.. لسنا وحدنا إذا.. مدن الكهرباء والسيارات تشاركنا هذا الثلج. لكن كوخنا يتحمل ثقل الثلج بظهر عار. لذلك قضقضت أعمدة الخشب فخرجنا في هبة شهمة، نحن أبناء هذا الكوخ، نحمل جاروفاتنا ونتنادى ونحن نزيح كتل الثلج عن ظهر والدنا الصبور...

في الصباح خرجت للخفارة مبكرا جدا احمل بضع جمرات من المدفأة لأوقد بها نار الفطور. اشق طريقي بصعوبة بالغة وسط ثلج يصل إلى خاصرتي. لكان هذه الجمرات التي أتشبث بها هي الوعد الأخير بالدفء المستحيل، عصارة كوخنا الدافئ لمجابهة الفناء الأبيض الذي غطى صدر الأرض. أوقدت النار بصعوبة في الحطب المبلول ورحت أراقب العصافير تبحث في الأرض المكشوفة التي تحاذي المطبخ عن أخر الحبات قبل أن يغطيها الثلج. والسناجب تلم أخر الجوزات بحركات سريعة قلقة إلى جحورها الخفية... لقد غطى الثلج غرفنا المبعثرة تماما.. أيمكن أن تكون ثمة حياة وراء خيوط الدخان النحيلة هذه. عندما سخن الحليب نفخت في الصافرة فخرجت من الثقوب السوداء كائنات منفوخة بالملابس، ثقيلة الخطوات تشق طريقها وسط الثلج مثل أطفال يتعلمون خطواتهم الأولى. ومع ذلك لم تفارقهم بنادقهم.

بعد الثلج مباشرة تبدأ (الريح السوداء).. صفرت وولولت في الأعالي وبعثرت ثلج القمم العالية فمست وجودها بعض حباته الزجاجية. من يصدق إن هذا النحيب الجارح علامة الربيع الأولى. قبل أن تدخل وادينا مست أطراف شجر الحوار فأحنتها بقسوة. كدنا نقول لها: أهلا أيتها العاصفة فأكواخنا على مبعد خطوتين!... اكفهر الهواء والتوى ثم أفلتت قطعان الريح ونفخت بطن وادينا والتوى الشجر الناشب جذوره في الأرض والمقاوم بأذرعه هجوم العاصفة.

أيعرف الشجر مثل فلاحي الجبل حكمة هذه العاصفة. يقولون إن (الريح السوداء) توقظ الشجر المستسلم من سبات الشتاء الطويل.. تكسر أغصانها الميتة واللحاء اليابس وتحرك في عروقها نسغ الحياة فتتفتح خضرة طازجة في أطراف الغصون.. روح الأشجار القديمة كانت تقاوم العاصفة بأنين وقعقعة وغصون تنهش صدر العاصفة الضاغط.. تهدأ العاصفة لحظات فيخيم صمت لانهائي ثم تعود العاصفة بنواح وولولة اشد. جذوع الأشجار التي تسقف كوخنا وترفعه تصر تحت ضغط العاصفة وتتبعج الجدران وينحني الكوخ ويضيق أمام هذه العاصفة التي تهمل الجبال لتستهدفه بالذات. كل الأشياء حولنا وأمامنا تعبث من المقاومة اليائسة وأوشكت على الانهيار ثم تماسكت في وقفة أخيرة.

تستمر العاصفة في لعبتها القاسية فتلطم كوخنا ثانية وثالثة تريد أن تجبر كل جسم واقف على السقوط. وقد رأيت كيف قوضت خيمة التموين.. في البداية قطعت حبالها، ثم مزقت بابها وبقيت تخفق مثل نسر جريح ثم هوت بإنهيار كتيم...

كل الحيوانات الناعمة الهشة، كالسنجاب والعصافير، هربت منذ صرخة الإنذار إلى جحورها في كمون يشبه الموت. وهامت الجرذان في سقف غرفتنا، تركض وترتطم، باحثة عن جحر يؤويها، لكن العاصفة تلاحقها وتدخل كل الثقوب والثنايا... نحن أيضا توزعنا زوايا الكوخ ودخلنا تحت أغطيتنا نراقب جدران الكوخ وسقفه المائج وقد أعطيناه أعصابنا وعضلاتنا.

... أطلقت العاصفة آخر صرخاتها في وادينا ثم صعدت إلى الأعلى ليبقى كوخنا بطينه وحجارته وجذوعه... لقد اجتاز كل فصول الطبيعة واختباراتها القاسية وأصبح مؤهلا لأن يكون صرح الإنسان المتواضع العنيد على الجبل.

وداع البيوت

كنت مستلقيا أراقب تجاعيد الشتاء العتيق على جدران الكوخ حين اخترق الصمت الربيعي دوي خاطف.

- طيران، انتشار!

اختطفنا بنادقنا المركونة عند رؤوسنا وقفزنا خارجين.. من أمان الحجرات إلى احتمالات الموت النازل إلينا من سقف السماء... وقبل أن ندخل مواضعنا الأولى نقلت الأرض عبر عظام أجسادنا، هزة الانفجار البعيد... لم نر تلك الطائرة، ولم نعرف هويتها لكنها قرعت جرس التنبيه.. فقد دقت الحرب الكبيرة بابنا.

في هذه الجبال المنسية دقت الحرب باب وادينا وتقاربت جيوش الطرفين لتحاصرنا وصارت القذائف تصفر فوقنا.

قبل أن يخط ضوء الصباح قمم الجبال، تقسمنا إلى مجموعات حاملين حقائب الأشياء الغالية وبضع أرغفة خبز وشاي وسكر... كنت أتلمس طريقي في الظلام الدامس إلى زوايا الجبل الذي اجهله، حيث سأجد موضعا للاحتماء من غارات الطيران المحتمل. وقد حملت على ظهري الموجع دفاتري وصور زوجتي وأطفالي، اعز ما تبقى لدي من عالم مهدد بالانفجارات... خلال الصعود المتعثر الشاق كنت أتتبع النجمات الحائرة التي تدل على رفاقي الذين يكشفون ببطارياتهم اليدوية موضع قدم واحتماء في الجبل.



قطع الجبل السماء الزرقاء الرقيقة بسن صخري مدبب وكانت السماء خلفه تمور بضوء فاتر بينما بدت مناطق الظل غائرة في ذلك الصباح الذي يهيء المشهد لمحاربين متقابلين يسنون حراب بنادقهم على الصخور قبل أن تبدأ المعركة. ارتعش خط الصمت وكذلك أعصاب المقاتلين الذين يحرسون الوادي بعد قذيفة وبضع صليات. ومالت عيوننا تستدرج الضوء بحثا عن أعداء متوارين في ثنيات الجبل المظلمة بانتظار لحظة الإلتحام. لمع السن الصخري كرأس حربة حين مسه أول شعاع من الشمس. لم يحل الضوء منسابا كما الماء، أنما قفز من ثغرة بين جبلين فتكسر على حواف الصخور. قفزة ثانية الى متن الوادي متهيئا ليقفز الى ظفة النهر الأخرى حيث مايزال الليل بنفسه البارد يحني رؤوس القصب... قفزة أخرى فامتلأ الوادي بضوء له لون المذبحة الواضحة.

عندما خط الضوء معالم الأشياء ارتشفت المشهد بعيوني: بدا الوادي كما للمرة الأولى، والرهافة في سكنة بين القذيفة والقذيفة. عما قليل ستستيقظ الجيوش وترفع عن المدافع أغطيتها.. أول ما رأيت سطوح البيوت التي تركناها لنحتمي بالجبل: كيف يمكن إخفاء لمسة الإنسان ومكانه وسط هذه الطبيعة.. كم من السنوات، وكم من المحاولات اليائسة، حتى استطاع الإنسان أن يخلص ذهنه من تعرج الطبيعة ويستنبط الخط الهندسي ويفرضه عليها بوصفه علامة وجوده التي لا تخطئ.

– خلال دقائق يحول الطيران بيوتنا هذه إلى ركام داخن!

قال رفيقي في الموقع. كنت أرى وأميز بيتي واحن إليه من هذا الارتفاع البارد واسترجع شهامته في مواجهة المطر والثلج والعاصفة.. لقد تركته وحيدا لأنجوا بنفسي... أواسيه من موقعي البعيد وألم حوله أشجار العفص والجوز لأخفيه عن الطيران المحتمل. أعلل نفسي بأن الطائرات المسرعة العالية لن تجد بيتا تتجه إليه كل الأشجار لتواريه عن الشر. وقد اطمأن بيتي إلى هذه الأمنية فنام بدعة وسط سلام النباتات.. غارق في هناءته، لا يعرف شيئا عن المعارك القادمة والطائرات التي مرت أو ستمر. ينفث بقايا دخان المدفأة بنعومة وهدوء لا مثيل له. ستمر الجيوش وتستظل وتتدفأ وتذهب دون أن تمس بيت الآباء جميعا...

عندما كنت اجمع الحطب للنار التي ستطرد البرد من عظامنا، سمعت صوت الطيران وتحذير آمر الموقع... كانت طائرتان تمران على قماشه السماء الزرقاء... التصقت بأقرب الصخور... استدارتا ثانية باتجاهنا فالتمعتا كنصال السكين ونزلتا إليّ بالتحديد فبدت الصخرة التي احتمي بها اصغر من صماخي. ودون أن ادري كنت أقلص جسدي ليحتل اصغر حيز من الفرا غ وأنا أتحسس بلحمي صوت الانفجار الوشيك. وبظهري بحثت عن بيت يلم جسدي ويحميه من شظايا الانفجار... لم تدم دورة الطائرة سوى ثوان، لكنها كانت زمنا كثيفا مكهربا بأعصابي وأسلاك المحركات.. عبرت الطائرة بيوتنا المتناثرة بين الشجر وأفرغت حمما على موقع خلف الجبل.

... بعد الطيران سمع رفاقنا في القمم صوت المدافع... كنا ندري بمعارك تدور منذ يومين على السلسلة التي نسكن جبلا منها وندري إن قرية «ميراوه» الواقعة في الجانب الأخر من الجبل قد قصفت اليوم. لكن منظر بيوتنا يغذي أوهام الأمان فينا. فنعلل أنفسنا بأن الحرب ستتجاوز بيوتنا المتوارية بين الصخور والشجر. و لذلك تناسينا قوافل النازحين الذين تركوا بيوتهم حالما طالتها القذائف.

أنا وآمر موقعنا صعدنا القمة في صباح الاستنفار التالي لنستطلع الأخبار في «ميراوه»... عندما وصلنا القمة رأينا سهول المعارك ساكنة تحت الضباب.. الجنود الذين احتموا بعالم الأحلام من قسوة الانفجارات لم يستيقظوا بعد. وفي الوادي الضيق الذي نزلنا إليه بعد استراحة قصيرة، لم يصل ضوء الفجر قرية «ميراوه» المصنوعة من طين الوهم. مست أنوفنا رائحة الخبز ونحن نلمح نيران التنانير راعشة وراء ضباب الصباح... كنا ننزل بهدوء ونحن نراقب جلال البيوت المأهولة بآباء وأمهات وأطفال في مهود خشبية... انفتحت أول نافذة على صياح الديك.. هل فتحها احد؟ أم إنها استجابت للمسة الضوء والصوت؟

هبطنا بضع صخور فانفتحت درفة باب، وخرجت إلى الساحة امرأة تحمل العلف لأبقارها. لم تتلفت حولها. فقد أنساها عمل الصباح اليومي تلك المدافع المغطاة التي تنتظر الوضوح لتدوي باتجاه بيتها وبقرتها.. تلمست خصرها..



ربما تتحسس اثر ذراع طوتها البارحة؟ ثم تركت جسدها يندفع ويميس مع نسمات الصباح البارد... إنها تتحرك بمنأى عن نظراتنا الآكلة. بعدها خرج شيخ يدب باتجاه الجامع. وتحركت يدان لتدقا الحبوب في المهباش... كان الحياة في هذه القرية تنهض على إيقاع خطواتنا النازلة من القمة...

في ثنية الجبل خطر لنا أن نجرب قدرتنا على التسديد فثبتنا هدفا وأطلق رفيقي ثلاث رصاصات. التفت إلى أهل القرية فرأيت الحياة، التي بدأت قبل قليل قد جمدت:

توقفت أصابع الحلابة، وانقطع خيط الحليب.

انغرزت مدقه المهباش في طينة الهواء.

تعثر صوت المؤذن.

... لقد شدت رصاصاتنا اللاهية ناس القرية نحو سلك راعش يتصل

بمصائرهم معا وكأفراد... كيف لنا أن نلم شظايا الحياة التي كسرنا: أصابع الحلابة وصوت المؤذن وكمون الدجاجة على بيضاتها؟! لقد ايقضت رصاصاتنا مدافع الحرب في السهل وفي هاجس الناس.. كل قذيفة تهز وهم الأمان الذي تغذيه البيوت في سكانها. وتستحثهم على استثمار فرص النجاة الضيقة والرحيل إلى اللامكان.

على الطريق رأينا أول القوافل الهاربة من المعارك: البغال تقرع الحجر بحوافرها غير دارية بإحزان الركب ولا بسبب الرحيل. والكلاب تتابع القافلة حائرة بين الولاء للمكان والولاء لأهله... توقفنا بخشوع جانبا لنفسح الطريق للقافلة المنكوبة. العجوز الصامتة كمومياء في مقدمة القافلة. لم تلمنا على رصاصاتنا الطائشة.. كانت تئن وتهتز مع حركة البغل وهي تحيل الفاعل والمفعول لإرادة الخالق. بعد العجوز جاء الشحوب والذهول في وجوه تتلفت إلى الخلف، إلى البيوت التي ستدكها القذائف عما قليل... لقد حملوا أحشاء البيوت على ظهور البغال: قدور الطعام، أفرشة النوم، أدوات الحراثة وجرار الماء.. كلها بدت عارية رثة بعد انتزاعها من مكانها العتيد. سيدة البيت لم تترك شيئا يذكر مهما بدا لزوجها المحارب تافها.. لا فرق عندها بين النحاس والفخار، لأن المعادن تنضح بالذكريات المتوارية فيها ولمسات الصانع وطباعه.

– أين انتم ذاهبون؟

سألهم رفيقي، فأشارت العجوز إلى مكان يقع بين السماء والأرض المترامية خلف الجبال.. بعد بيت العمر لم يعد للمكان اسم.

في أخر الركب رأينا شيئا لم تألفة عيوننا في هذه الجبال: كمان!

– لمن هذا؟

سألت الشاب المسرع إلى حيث لا يدري.

– لي.

أجاب وهو يمسح التراب عن أوتاره، ومضى دون أن يترك مجالا لأسئلة أخرى. ولم اعرف أبدا اسم النغمة التي قطعتها القذيفة ولا سر الكمان أو

العازف الذي لن التقيه ابداً...

***

عندما دقت قذيفة الهاون باب وادينا جاء أمر الرحيل.

- الأسلحة أولا، وبعدها الافرشة والكتب الضرورية!

لم يكن الأمر مفاجئا لنا،مع ذلك حل هم يثقل أنفاسنا.

نراقب البيوت المبتلة بماء المطر ثم نشيح أنظارنا بالتفاتة حادة.

نتجمع لنقول لبعضنا شيئا فتخرج الكلمات عجينية بطيئة.. أسئلة للزمان والمكان وفن الممكن المسمى (سياسة). أسئلة ساذجة تستأنف الخليقة والأقدار التي تحملنا بلا مكوث... نتحصن بالطفولة والرقة ونكسر حدتنا بالتنكيت على حالنا:

- غجر مثلنا ينبغي أن لا يبنوا بيوتا...

- ينبغي أن نبقى لندافع عن مواقعنا.

قالها نصير شاب بحماسة جازمة.

- عماذا ندافع، وما الذي نملكه لندافع عنه.. ندافع عن هذه الخيام الرثة أم حجرات الموقد. ندافع عن التنور، أم المرحاض...

- فلنهدم المرحاض حتى لا يعرفونا من خرائنا...

- أسألكم يارفاق.. كيف سيعرف ساعي البريد عنوان بيتي القادم؟!

أبو سهيل رفض الرضوخ للأمر الواقع وبقي يسوي سقف البيت المبتل بالمدحلة بعد أن جمع حقائبه للرحيل.

- لمن تهيء البيت؟

سألناه بدهشة ساخرة.

- للمنتصر.

واستمر يسحب بالحبل الاسطوانة الحجرية ويرفسها بعصبية.

ننكت ونعلل أنفسنا بأوهام نلغيها بسرعة: احتمال تراجع الهجوم، أو أن

تتجاوز الحرب وادينا المتواري بين الشجر...

خلال يومين تغير المكان تماما، غيرته المساحات الفارغة..خفت الحركة على الممرات وانقطع دخان النار عن مواقع كاملة. قلت الأصوات ونزلت وحوش الجبل لترود المواقع التي تركت... لقد أنشب الغائبون دلالاتهم في البيوت التي تركوها بقوة، تركوا سكناتهم والمشهد الأكثر دلالة عليهم فوق ديكور الحجر: العتبة جاهزة أبدا لخطوتهم اللينة. الباب الموارب إلى النصف والنافذة، الإطار المستعد لاحتواء الصورة ذاتها.. لكأن كل هذه الأشياء وجدت لتدل على شكل الغائب... ألان عرفت لماذا كان البكاء على الأطلال مدخلا للقصيدة العربية. فالزمان يصبح وشيجة صلة. بعد غياب الشكل تبقى من الغائبين عصارتهم التي تمس الروح بدون صورة ولا اسم. وتحز حناجرنا ونحن نراقب الغرف الخاوية تلك الألفة المفقودة.

تذكرت عمري الذي قارب الأربعين وأنا أشد حقائبي للرحيل: كم من البيوت والمدن اختفت من حياتي. بيت يمحو سابقه ومدينة تمسح مدينة.. ما أن أشيد مكتبة وطاولة واعلق على الجدار صورة حتى انتزع بقوة لا مرد لها. وما أن أتعرف على دروب وناس في المدينة حتى يأتي نداء الرحيل. مع كل مدينة يسير ملاك النسيان فوقي ويمسح بجناحه الضبابي البارد مدينة اثر مدينة ومعها أسماء ووجوه وقطعة من لحم حياتي.

لتفتيت الحزن، دعينا لإجتماع سياسي طارئ.. قمة الجبل يكللها الضباب والبغال مصطفة لتحمل متاع من بقوا، وعلى سطح ندي بدأ مسؤولنا الكلام. لم يقل كلمة أسى على الأطلال التي تركناها، لكأن الرحيل مهنتنا الدائمة. تحدث عن معركة كبيرة قادمة. قد نخسر جولتها الأولى، ولكنها ستعزز موقعنا... حديثه أنسانا حزن الرحيل وصوت المدافع وراء الجبل، واستحوذت علينا الفرضيات الكبيرة فبدت أجسادنا صغيرة وسط هذه البانوراما السياسية التي نشكل ونتشكل في جزء صغير منها.

الحرب قسمتنا، نحن المقاتلون في الجبل بين ثلاثة مواقف:

هناك من يريد الاستفادة من الحرب لإحراز انتصار على نظام الحروب والموت.

وهناك من يراها حربا وطنية ينبغي أن نؤجل حربنا الصغيرة للدفاع عن الوطن بالوقوف مع النظام أو جيشه.

كنا بين بين نحاول أن نفصل حربنا الصغيرة عن حروب الكبار. لكن الحرب الكبيرة كانت تلاحقنا وهي تمدد جبهاتها من الجنوب الى الشمال. نحاول فصل حربنا الصغيرة عن المتحاربين الكبار فنتحرك في الارض الحرام بين الجثث. كنت أكتب مساندا هذا الموقف (لا للحرب ولا للدكتاتورية!) وفي داخلي كنت مع هذا الجسد المحاصر بين موتين فيختار الأهون.

مع الفجر بدأنا الرحيل وقد أدرنا ظهورنا للمكان الذي تركناه.. لم نلتفت ولم نتحسر عليه.. الذين مثلنا ينبغي أن لا يرتبطوا كثيرا بالأمكنة.عليهم أن يقاوموا سحر البيت وأشياءه الصغيرة. لذلك خفّفنا ثقل حقائبنا ونسينا فرحة التملك الأولى، وعلّلنا أنفسنا ونحن ندير ظهورنا عن سطوح المدينة بأننا ذاهبون إلى المكان ولسنا تاركينه.

مثقفون وأنصار

إذا كانت دروب الأفكار مطروقة سيبقى أمامك درب الممارسة

أنطوان دي سانت اكزوبري

أرض البشر

في المواقع أو المفارز رأيت المسرحي يحطم الصخور بمطرقة حديدية ضخمة ويمسح العرق بقفا يده. والرسام التشكيلي يقود على الممر العالي بغلا محملا بصناديق العتاد... يناديني من فوق:

- أترى؟ لو رآني بيكاسو على هذه الحال لعفط لي...

الشاعر على التنور يخبز وقد نحى القصائد إلى ابعد مسافة ممكنة... يقومون باشق الأعمال، تسوقهم عقدة التطهر لينفوا للآخرين ولأنفسهم اتهاما يلاحقهم بأنيهم من زجاج هش لا يصلح للجبل ولقسوة الحياة هنا... في بداية وصولهم إلى الجبل كان مسؤولو الفصائل يرفضهم:

- ماذا افعل بواحد يقضي يومه، سارحا أو مستلقيا يقلب كتابا؟

وقد تصادم مزاج المثقف الحر مع الفلاحين الذين يقودون الفصائل. فكل ما يفعله المثقف يتصادم مع مزاج أهالي القرى... بلحاهم الطويلة كانوا يثيرون سخرية الفلاحين على المفارز، فاللحية الطويلة هي العلامة المميزة للمتصوف. وكثيراً ما ينهض صاحب البيت للمثقف الساهي: «لدي موس حاد إذا لم يكن لديك ما تحلق به لحيتك؟». وقد سمعت جدالا حادا بين احد المثقفين ومسؤول فصيلة:

- قلت لك يا رفيق ألف مرة.. لا تبول وأنت واقف!

- ولماذا؟

- أنت لست في المدينة. الكلاب وحدها هنا تبول واقفة!

- وتسميها أرضا محررة هذه التي لا يستطيع الإنسان أن يبول فيها واقفا!؟

ينظر الفلاحون المقاتلون، الذين كان الجبل خندقهم ومدينتهم، للكتاب بارتياب غريزي. الكتاب يعني المدرسة. ولا يحمل الكتاب إلاّ من كان مزمعا على ترك

السلاح والعودة لـ(مدرسة السلطة). مرارا خذلهم أولاد الاغوات والشيوخ الذين يلتحقون بالحركة أيام عزها ويقفزون إلى المراكز القيادية بالقلم لا بالسلاح. يصعدون الجبل وعيونهم على المدينة. ولذلك كانوا أول من سلم للسلطة في فترات الهزيمة. وكثيرا ما أنقذوا أنفسهم بمفاوضة السلطة في غفلة عنهم وتركوهم لنذالة السلطة المنتصرة. ولذلك ترسب عندهم يقين ضمني بأن الكتاب عدو البندقية، والمدرسة عدوة الجبل.

العديد من المثقفين تعب من (حياة البغال) كما سماها احدهم.. تحتدم روحه كلما سمع إن زميلا له أقام معرضا أو نشر كتابا وهو هنا مشغول بالتحطيب وقيادة البغال. (ع) أصبح حادا وعدائيا لا يكتب إلا عن أسوا النماذج، ولا يرى فيمن حوله إلاّ أسوأ خصالهم. «ما من احد يفهمني هنا، وقد أصبح الجبل في عيني كالزنزانة. أتعرف أجمل منظر بالنسبة لي؟ غرفة مطلية بالكلس وفيها منضدة للكتابة». دائما تراود المثقف نزوة ملحاح لان يرى معرضا تشكيليا أو فيلما سينمائيا أو مسرحية. «مللت الكتاب، أريد ثقافة مرئية!».

هناك يأس آخر لا يقل خطرا: أن يكفر المثقف بمكانه ويندمج في (حياة البغال). يبدأ الأمر بقرار قصدي، أن يتناسى المثقف انه كان ذات يوم نحاتا أو



مسرحيا ويدفع نفسه إلى العمل اليدوي بنوع من الشماتة من نفسه وممن حوله. يحاول أن يلغي عن نفسه، تلك التهمة التي تقال أحيانا بنوع من السخرية: «مثقف ثوري!».

لقد أخطأنا منذ البداية حين أقمنا القطيعة بين الفأس والقلم، بين العضلة والدماغ، فكدنا نفقد الاثنين حين قررنا أن نكسب واحدا... لكن الطيار الشاعر اكزوبري نصحنا: «إذا كانت دروب الأفكار مطروقة سيبقى أمامك درب الممارسة». فالممارسة النبهة هي استجماع إرادة وتركيز طاقة وذهن.. توقد الفكرة وتعطيها زخم الشعر وترتد الفكرة فتمنح الممارسة قوة المغزى. ومن يجمع شكيمة الفلاح وشاعرية الطفل سيكون قادرا على صنع المعجزة الثقافية الصبورة في الجبل. لقد أوشك السينمائي المقاتل «شهيد عبد الرضا» أن يفعل ذلك حين قاطعته صليه رصاص وطعنة حربة. كان يدور في المواقع ويتحرك ويراقب حركة رفاقه وهو يسجل في دفتر صغير مشاهد فيلم سينمائي عن الحياة. لقد سجل في دفتره وذاكرته كل المشاهد ولكن لم يسجل المشهد الأخير الذي اخذ حياته. كان بحاجة إلى قليل من الوقت المضاف ليعرف انه لم يكن بحاجة لأن يسجل كل ذلك. هنا لايحتاج المرء إلى مخرج. يكفي أحيانا أن تضع كاميرا حيث تجري الحياة اليومية فيبدأ الفلم.

صديقي الشاعر (عواد ناصر) قال لي: «خلال ساعات العمل لم يخامرني أي شعور بأني شاعر ذو مواصفات خاصة، ويحتاج إلى ظروف تتناسب مع جنونه. فالمهم انجاز العمل وما تبقى سيأتي فيما بعد. ولكن ليس بعيدا جدا. واعني القصيدة بالتحديد. لن يلغي العمل القصيدة إلا إذا كانت جذورها رخوة. خلال العمل وبين ثناياه تنتظر القصيدة في الوجدان. وكثيرا ما كنت اضرب لها موعدا تحت الشجرة بعيدا عن الأنظار، بالضبط كموعد مع امرأة.. لقد وجدت ووضعت وقتا خاصا لترتيب حواسي واستخدامها في تأمل المحيط... المجموعة الشعرية التي كتبتها، كانت جزءا من التجربة: شجرة، ثلج، بندقية، نهر، استشهاد... كانت من مفردات التجربة، وليست ضدها، كما هو الحال في المدن العدوة. وقد اكتسبت هذه القصائد بدائية الواقع وتلقائيته». تماما كصديقي

الشاعر ولدت لدي صعوبات الحياة في أول الأيام قناعة بأن التجربة هنا وجدت لتعاش. لأن كل شيء في هذه البيئة الخطرة يحتاج إلى الوعي بكامله. حتى المسير نفسه لا يعطي فسحة لتأمل المشهد المحيط. ولكن ما رأيته وعشته سيأتي مع أول جلسة تأمل.. هنا ستتأهب الحواس الداخلية حالما يوضع القلم على الورقة. وتتزاحم الأشياء التي رأيتها كما يتزاحم الأطفال أمام المصور الفوتوغرافي.

... ذات يوم أعلنت لرفاقي في الموقع، وفي القواطع الأخرى بأني مزمع على كتابة رواية وأريد منهم أن يحدثوني أو يرسلوا لي شيئا عن اكثر التجارب تأثيرا في وجدانهم. لم أتصور إن الأمر سيكون جديا تماما. إنما بدأت ككاتب يحايل موضوعه. لكني وجدت، حيثما ذهبت، أوراقا مطوية بعناية تنتظرني. يقدمها لي الرفيق في خلوة بعيدة عن الآخرين بحياء وجد: - آسف لأني لم استطع الكتابة بشكل أفضل فأنا عامل بناء...

أحيانا يأتي أمر الفصيل ليخبرني إن رفيقا ينتظرني قرب الحرس. اذهب فأجد وجها غريبا.. يعرفني على نفسه، ويقدم لي أوراقه ويذهب. وصلتني دفاتر يوميات من مقاتلين في المفارز وجاءني (م) ليروي التجربة شفهيا:

- القلم يخذلني دائما سأحكي لك وأنت تكتب!

مرة كان محدثي مساعد سائق سيارة في المدينة ومقتحم ربايا في الجبل. لم أر في حياتي شخصا يجيد سرد التفاصيل والمفارقات الموحية بهذا الذكاء والحرارة.. لقد سحرني هذا اللعين بذاك الانسجام بين حركات جسده وكلماته. كل ما في جسده ينتفض وينفرج على إيقاع خطوات مجموعة الاقتحام. كأني سمعت صوت الصليات المتقطعة وانا أراقب سبابته تضغط زندا وهميا... بعد أيام أعدت كتابة ما رواه وتقاسمنا الدفتر... منه الخبرة ومني الخيال والحدس.

... كنت أراقب وجهه وهو يدقق سطوري كمن يدخل خيطا في ثقب إبرة. بعد أن فرغ من القراءة رفع رأسه عن الدفتر بتثاقل وزفر بعمق وسألني:

- كيف كتبت ذلك؟

- لماذا؟

- كل هذه الأشياء خطرت ببالي على نحو ما، ولكن...

- إنها لعبتي. نحن الكتاب صيادو خبرة الآخرين.

... من بين الدفاتر التي وصلتني التقطت من يوميات نصيرة و حولتها إلى مسرحية من فصل واحد. النصيرة تشارك في اقتحام بيت ضابط مخابرات. تتم عملية الاقتحام خلال تلك اللحظات التي يزيح فيها الجلاد كوابيس مهنة النهار ويندمج في جو الأمان العائلي... يرتدي دشداشة بيضاء ويتمدد على الأريكة ليراقب التلفزيون مع أطفاله وزوجته. في المسرحية يدور الحوار بين النصيرة وزوجة الجلاد... امرأتان تعرفان بعضهما بالفراسة.. تعرفان معنى الأمور البيتية واجتماع العائلة في المساء. بقية الشخصيات تبقى ساكتة والنصيرة تدفع الزوجة لتحاكم زوجها وتثبت لها ما كانت تخشى مواجهته:

- ولو أني أعرفك جيدا.. ولكن قل لها عبد الله، أو بالأحرى قل لي: إن ما قالته محض كذب!

- ....

- كفاك سكوتا يا عبد الله.. هل كنت؟

- ...

كنت احرس موقعنا من ربيه فوقه وأنا أراقب رفاقي المسرحيين يتدربون على سطح قاعة النوم وبنادقهم مركونة على شجرة جوز تضللهم. يأتي صوت الزوجة وهي تصرخ بإستنكار:

- تكذبون.. انتم السياسيون تلوثون سمعة أعدائكم بلا ضمير!

... كل رفاق الفصيل تابعوا الإعداد للمسرحية والبروفات وحفظوا جزءا من الحوار. ولم يبق سر من أسرار اللعبة إلا وانكشف لهم. لكن فضولهم لمتابعة العمل ازداد كلما توغلوا معنا... كانوا يسرقون من العمل لحظات ليروا كيف ستنفذ الممثلة تعليمات المخرج:

- قوليها بغضب، ولكن بهدوء وبطء!

... وكنت أرى تقلصات وجهوهم عندما يتلبسون حالة الممثلة وهي تفشل مرارا في أداء الحركة التي يريدها المخرج الغاضب. ذات مرة قال لي مضمد شغوف بمراقبة العمل:

– عندما كنت أراقب التمارين راودني شعور ما، إني استطيع أن أكون ممثلا. وقد توالدت لدي ملاحظات وأفكار لنجاح العمل.. هل لي أن اطرحها عليك؟ بشرط أن لا تضحك مني...

... في كل يوم تقريبا كنا نعدل الحوار والمشاهد على ضوء تلك الملاحظات الخجولة الهامسة التي يقدمها المقاتلون... وكلما نضج العمل أمام المقاتلين ازداد إحساسهم بالمشاركة والمسؤولية عن نجاح عمل «هم» وخرج الأمر عن كونه مجرد متعة: ولذلك تقاسموا نوبات حراستنا وحفاراتنا في التحطيب والطبخ دونما أية منة.. المهم أن ينجح العمل!

... لقد حدث شيء مماثل لهذا في تجربة رفيقنا الرسام:

«أن ترسم من خلال الوقت الجماعي، وان يتطوع رفيق للقيام بعملك اليوم من أجل أن ترسم، لساعة أو ساعتين. فذلك مدعاة للحرص على أن لا تفلت دقيقة، وأن يكون الوقت مثمرا وبالضرورة سنجد إن ما أنجزت قضية تهم الجميع. وان هذه اللوحة ستكون مثار تمعن وذوق ونقاش. ومؤكدا إن علاقة الجماعة بلوحة رسام (هم) سوف تتجاوز قيمة الوقت العام بالرغم من استعارته من ضروراتهم الخاصة والعامة، لتحل قيمة أخرى أكثر أهمية، هي ما يمكن تسميته بـ«تكون الحضور التشكيلي الجمعي» الذي ينشأ من خلال (العمل = الوقت + الرفقة) ومن خلال حضور الفنان في الوسط بمعنى: اتضاح بعض أسرار تكون العمل الفني الذي كان مسيجا بالغموض وربما بالخرافة. إن انجاز العمل الفني أمام المتلقين سيعينهم على تقدير قيمة المبدع ونتاجه وسيشعرهم بالمشاركة في خلق العمل.

الكاتب والقارئ

هنا يتجاور الكاتب مع قارئه في المكان، ولذلك لن يكون احدهم شبحا للآخر. يعرفان بعضهما كما يعرف حرفي القرية زبونه.. ويراقب القارئ عمل كاتبه كما يراقب الزبون سلعته وهي تتلون بين أصابع الحرفي فتكون وشيجة صداقة تتجاوز علاقة المنتج بالمستهلك...

في الكمين النهاري كنت أقدم لرفيقي ما اكتبه ورقة ورقة قبل أن يجف الحبر. يأخذ مني وهو يدري أن لهفتي إلى الحكم لا تقبل التأجيل... وحتى قبل أن يصدر الحكم، كنت اقرأ مادتي على وجه زبوني. اعرف من إلتواء الفم وتقارب الحاجبين وقفزة تفاحة ادم المقطع الذي يقرأه في لحظة محددة.. وتتحفز حواسي حين يرفع قارئي عينيه من الورقة ويسحب نفسا عميقا ليقول:

- ...

إني أخاف هذا القارىء، لأنه ناقد نزيه ولأنه شريكي في التجربة، وبدوره يعرف مصادر مادتي وحدود الواقع والخيال فيها... لقد اكتفيت بالقراء الثمانية في فصيلي... إنهم جمهوري الممكن والمقنع حيث لا صحف ولا مطابع في هذا الموقع البعيد. تعاملت معهم كشركاء امنين على أسرار الحرفة. وأصبحت القراءة والكتابة بيننا فعل بوح وصداقة...

لن تكون القراءة بالنسبة للمقاتل دعوى لعزلة، إنما حافز علاقة أوثق.. كلما ضاقت عليه العبارة سيسأل رفاقه. وكلما أعجبه مقطع أراد إشراك الآخرين فيقرأ بصوت عال... كنت أحسده على متعة القراءة دون قصد، لأنه غير مطالب بالتفسير والنقد هذا التلميذ الذي لن يصبح معلما.. تنعكس الكلمات كشعاع الشمس على ماء روحه الرائق فتحركه التجربة المضافة، وتوقظ حماسة القراءة في داخله كبرياء الكاتب. ولذلك يندر أن ينجو من إغراء أن يكون كاتبا، لأنه يمتلك الصور التي تقدم إليه بتلقائية طيبة. ويثبت ملكيته باستنساخ أجمل المقاطع، وأحيانا دواوين وروايات كاملة في دفاتر يحملها مع خبز الطريق ورسائل الحبيبات. دائما يلوم هذا القارئ نفسه، لأنه لم يكتب شيئا كهذا الذي

قرأه حين كانت الكلمات على طرف لسانه. ويندر أن تجد بين المقاتلين الجدد من لم يجرب حظه في كتابة قصيدة أو قصة أو رثاء شهيد عرفه... ومن الاستنساخ ومن هذه الكتابات الأولى ولدت النشرات المخطوطة التي تتبادلها المفارز...

تتشقق أقدم المقاتل وتتحجر أطراف أصابعه ويتلبس تماما صورة فلاح ولد بين حجارة الجبل، لكن توقه إلى المعرفة لن ينطفئ أبدا... يتباهى بأنه فاق البغل بغولة في الجسد والدماغ، ولكنه يكذب، لأن جمرة المعرفة كامنة فيه تحت الجلد المتقرن. وهو يدري إن القتال لن ينتهي عند مطابقة الفرضة والشعيرة. فالمعارك أصبحت أكثر التباسا وكذلك وجه العدو، ولن يتسامح أهالي القرى مع المقاتل الذي يجهل الإجابة عن الأسئلة الملحاحة. وقد حدثني مقاتل شاب حرمته الزراعة عن القراءة والكتابة عن إحساسه بالعار من أميته... وفي وسط العائلة التي استضافته اخرج الجريدة من حقيبته وبدأ يقرأ أشياء حفظها عن ظهر قلب لا وجود لها في الجريدة..

كان مستلقيا إلى جانبي تحت شجرة الجوز في ساعة بين المسير والقتال، ينظر إلى فعل الكتابة العجيب: القلم يتابع سطور الدفتر.. صاعدا، نازلا منكفئا، مندفعا، مغروزا.. يترك خلفه سلسلة الكلمات التي تحمل أفكاري التي ستصبح أفكار القارئ فيما بعد.

كان وجهه قريبا إلى الورقة ومع أنفاسه الحارة على قفى كفي كنت اسمع:

– عجيـــب!

لاهثة ممطوطة.

– ما العجيب يا (جوتيار)؟

– هذا الذي تفعله يشبه حجاب الساحر... أعطي نصف حياتي الباقية لمن يعلمني قراءة هذه الكلمات. ومع ذلك أدري انه مستحيل!

– لماذا مستحيل؟

– قراءة كل هذه الكلمات.. كم عددها: آلاف، ملايين؟

– ومن قال لك إن الأمر يتطلب تعلم كل كلمة في الدفتر؟ يكفي أن تتعلم قراءة

الحروف وروابط الكلمات. وبعد ذلك ستكشف لك الكلمات سحرها كالنساء.

أراد أن يصدقني وهو يبتسم مقلبا الدفتر بين يديه. ولكن تطميناتي بدت له تسرية لعاجز.. فقد أطبقت الأمية عليه حتى ما عاد يرى نفسه بدونها.

لقد كان (جوتيار) واحدا من أشجع المقاتلين، وأكثرهم خبرة بشعاب الجبل وسكنات العدو. ولكنه يشعر دائما انه «نصف إنسان، وربما اقل» بسبب أميته. يحس إن كلمات الكتاب تطرد عينه عندما ينظر إليها. ولديه مع ذلك يقين بات بأن الكتاب أغنى من الحياة بكثير. من أين جاءه هذا اليقين؟... ربما من رفاقه القادرين على تفكيك رموز الكتاب. لن أجد قرّاءا أوفياء مثلهم.. يتلقون الصور التي تقدم إليهم ويضاعفونها.

في بداية وصولي إلى القاعدة سمعت من يتحدث بإعجاب عن أعمال كنت اعدها باهتة. فيما بعد عرفت سر هذا الإعجاب: لقد أضافوا للكلمات التي قرأوها شيئا من ثراء التجربة التي يعيشونها.. فالأنصار الجدد الذين جاءوا للحركة من الصناعة الحديثة ومن المدارس أو من الجيش الذي يعلمهم التقنية والإذلال، يعيشون هنا لحظات اختبار قصوى في كل مفترق.. أيامهم حبلى بالسنوات في جوار الطبيعة وغدر العدو. ينبه المحيط وعيهم ويحذرهم الزمان الصعب من أية غفلة... ولكي يستمر المقاتل ويبرر قسوة حياته هنا، عليه أن يشيدها على فكرة مجردة تعطيه الكرامة والسبب. وعليه أن يربط الفكرة بلحم الواقع. ويبحث مع نفسه ومع الجماعة عن أسئلة موصلة.. حتى النكته العابرة تأخذ هنا شكل السؤال أو جوابه. ولذلك يتحرك العقل بروية ودأب في هذه الأجساد المستلقية تحت الشجرة تقلب كتابا خلال الاستراحة بين الحراسة والمسيرة والكمين. وحيثما لاحت ثمرة ثقافية في هذا الجبل الاجرد سيذهبون إليها مهما كان طريق الوصول شاقا، شرط أن تفتح لهم كوة صغيرة. لن أنسى ذلك المشهد العجيب بعد العاصفة الثلجية:

- لقد نجحنا!

قال رفيقي الرسام قاسم الساعدي وهو يفرك يديه غبطة... كنا نراقب من

قاعدتنا العالية مفرزة طويلة تشق طريقها بدأب دودة الأرض، وسط سهل يصل فيه الثلج إلى صدور المقاتلين.. كانوا يتناوبون على المقدمة لكي يفتحوا الطريق. وتتكسر ضحكاتهم وصرخاتهم على نواح العاصفة الموصول... يقتربون منا ببطء ولكن بدأب رغم إنهاك الطريق الطويل... لقد جاءوا رغم ذلك ليلبوا دعوة الثقافة التي بعثها الرسام، ليشاهدوا معرضا أقامه في مخزن الطين والذخيرة..

مام حسن

غابت حدود الأشياء في ليل الحراسة وتوارت الأسماء مع المسميات. ضاعت تلك القرية المحترقة لولا ذلك الضوء الوحيد الذي بنضح واهنا من نافذة بيت «مام حسن»... جالسا كنت على حجر بجانب الطريق الموصل إليه.. أصابعي على سبطانة البندقية وعيناي عالقتان بتلك العين الساهرة معي على الليل.. تحرس وتنتظر: «هناك إنسان وراء هذا الضوء المتوحد يمارس وجوده بدأب عنيد، بينما ألاحق أنا أحلامي جالسا على حجر».

لم انم، بعد كل تلك الأحاديث التي سمعتها عن «مام حسن» فقد علق ضوء نافذته في ذهني.. إشارة من عالم غريب يناديني بغواية مهلكة: «سأذهب إليه حارس الخرائب هذا».. قلت لنفسي وأنا أهدهدها كي تنام.

صباح اليوم الثاني حذرني آمر الموقع:

- لا يغرنك جمال هذا الوادي.. منه يمر طريق الربايا العسكرية وفيه ينصب المتسللون كمائنهم. فهمت؟

هززت رأسي موافقا وذهبت مع البندقية وكيس الخبز والتين الجاف.

قطعت جبلا رمليا وواد شقه السيل.. انقل خطواتي بحذر مربك على التراب الهيال خائفا من سقوط نظري إلى قاع الوادي العميق..«طيور الجثث» تسف وتخبط بأجنحتها أطراف الغصون الميتة ثم تصعد إلى السماء... داهمتني الوحدة التي صعدت كبخار القيعان فحثثت خطواتي إلى موعد غامض مع تلك القرية المحترقة والبيت الوحيد الذي ناداني في ليل الحراسة. من القمة الجرداء

تندمج البـراعم والأبصـال حـول القـرية في لون شـامل من الزرقـة والخـضـرة والرمـال.. كأنها سـحابة وليست أرضـا. عندها يلتقي توق الروح إلى اللون، بعد أيام الثلج الطويلة، مع توق الأرض التي أزاحت عنهـا غطاء الثلج لتكشف مـا فـيـهـا.. هي مـادة ووهـم، وهـي يسـيـرة وهاربة... كنت أطاردها وقـد انفـرشت أصـابعي إلى جـانبي. وكلمـا اقـتـربت أتحـسس هذا الفـردوس المفقـود وأنا أرى لمسات الإنسان الخفية المباركة على المدرجات المحروثة والجدران الحجرية التي أوقفت السيول والسواقي التي غطاها النعناع الفتي برائحته الطحينية الجارحة: «ليست هذه لمسات إنسـان، إنما لمسـات ملائكة عـملوا وذهبوا دون أن ينتظروا أجرا أو ثناء». ثمة أشياء بقيت كما تركت في لحظة الفاجعة: المحراث المائل على الأرض في نهاية خط الحراثة الذي بتر لحظة قدوم الطائرات والحبل الذي شد الخـروف المشـاكس إلى الشـجـرة وقـد تناثرت عظام الخـروف قـريبـا منه، كـدس الحطب بانتظار من ينقله إلى موقد البيت..

... بين المقـبرة والقـرية القـتيلة يقـع بيت (مـام حسن).. اتبـع الطريق التـرابي الموصل إليه كما اتبع حبل سرتي. جئت إليه مثل كل الناس الذين يسكنون حول (قنديل) ليسـألوه كلمـا تعـذرت مـشـورة الله... يقـولون انه أول من ترسـم طريق الراجلين لعبور الجبل، بعد أن تتبع قطعا يحميهم من (الريح السوداء) ويوصلهم إلى (مغارة الرهبان) دون المرور بالقمم. وهو الذي اكتشف مفتاح الشتاء القادم اعتمادا على أيام الهلال التي تسبقه.

كان (مـام حسن) غـائبا يوم جـاء ثلاثة عشـر من اجمـل المقاتلين.. كـانوا في عـجلة من أمـرهـم، لذلك صـعـدوا (قنديل) دون انتظار المشـورة. فـبـعـثـرتـهم العواصف فوارز وعلامات تعجب فوق صفحة الثلج الميتة.. منذ هذه المصيبة لم تغادر القرية مفرزة أو قافلة، إلا بعد أن تسمع من مام حسن:

– توكلوا على الله!العاصفة قبل قدومها؟

– الله أعطانا العقل لنفكر. يتوقف الأمر على من أنت وأين أنت؟ إذا كنت هنا قريبا من القرية والحقل فانظر الى الجبل. هل نزلت طيور الحـبارى الى تحت.

إذن فقد جاءت هربا من عاصفة محتمله. هل صارت العصافير تجمع الحبوب بسرعة، وهل صارت السناجب تركض وهي تخبئ جوزاتها في الجحور؟ هل نزل النحل أمام وجوهنا.. الحيوانات تدرك العاصفة قبلنا فتنزل من الأعالي الى الأرض الدافئة...

إذا كنت راعيا فراقب قطيعك! إذا انتشرت الغنمات متباعدة على السفح، فكن مطمئنا، أما إذا التمت فجأة فخذها الى المغارة لأن العاصفة قادمة.

ضاقت عينا مام حسن مع ابتسامة ساخرة وهو يروي حكاية واحد من أجداد القرية مع بعثة حكومية جاءت لتضع أجهزة في قمة " هذا الجبل " لمعرفة المناخ. إستأجروا الشيخ وبغلته لنقل أعمدة وساعات ومراوح لتنصب على القمة لمعرفة الأجواء. بعد أكملوا نصب المكائن استعجلهم الشيخ لينزلوا بسرعة قبل أن تدركهم العاصفة الثلجية.

– أجهزتنا لاتشير الى عاصفة قريبة... أنظر للمراوح إنها تتحرك ببطء

أجابه أفندية المدينة.

– أنا لا أعرف كيف تعمل أجهزتكم، لكني أعرف أن بغلي أخفى ذيله ليدفئ خصيتيه من عاصفة قادمة...

ما يزال الناس يتذكرون نبوءة مام حسن في «عام العسل المر»:

طائرات الحكومة التي مرّت في سماء القرية ستفسد طعام النحل، لأنها ستترك على رحيق الزهر شيئا من كيمياء الأبالسة. وبعد مرور الطائرات تقصفت الحشائش واصفرت الأوراق وذوت الشجيرات الفتية. وترك البارود طعمه الخانق على الثمار وعسل النحل وحليب الماعز.

... دائما يقول (مام حسن) لسائليه:

– المشورة له وحده!

ويشير إلى السماء بإصبع شبيهة بجذر شجرة.. ولكنه في النهاية، يحدد لسائليه مواعيد البذار والقطاف ومجامعة الماشية. وبذلك الصفير المتأتي العجيب يقود أسرابا مهاجرة من نحل العسل إلى الأشجار التي يختارها سكنا لها.

«كيف أبدأ الحديث معه؟».. تساءلت وأنا اعبر سياج مزرعته المصنوع من حجر وشوك. فقد أتيته لسبب لا علاقة له بالبذار والعاصفة والعلاج بعشبه شافية... أردت أن أتجاوز دهشتي بالطبيعة إلى معرفة وظائفها الخالدة، فأحب الورد وجذورها والعصارة الحامضية التي توصل الجذر بالثمرة.. اعرف أسماء النباتات ومواعيدها واتجاهات الريح ودوران الفصول على شاشة الأرض. ولذلك جئت إلى راوي الطبيعة الذي سيطل عليّ من درفة هذا الباب.

... رفعت كفي لأقرع باب الهواء فارتعشت إذنا الفرس منبهة خيالها: «جاء ضيف!»

«منذ متى كان ينتظرني هذا الشيخ النحيل؟».. تعثرت خطواتي حين أحاطتني نظرة الساكن على طريق العابرين، فلا بد له أن يزن ضيوفه الكثر ليعرف هويتهم من لون بشرتهم وإيقاع خطواتهم والطريقة التي يحملون بها سلاحهم وشكل ملابسهم.. خفق الهواء بيني وبينه بفعل ارتعاشه حاجبين كثين يضيعان عينين رصاصيتين تدوران حالما يصل العقل إلى جواب..

استقبلني بترحاب رتيب وأجلسني على حجر بجانبه ثم بدا يعب غليونه الطيني بالتبغ العبق الطري. حل بيننا صمت لا يمت للمكان والزمان.. له علاقة برجلين جلسا منذ زمان قديم على حجر واحد يراقبان الحقل الذي تحاصره الثلوج، وأمامها خطوط الحراثة هيأت الأرض المزرقة الندية لموعد مع حارثها.. لقد كشف سن المحراث بعض أسرارها: اشنات وجذور عطنة وقطرات ماء وديدان شريطية تتلوى. وتفوح الأرض المرغة بروائح ووعود.. لكان خلف فيها نارا وماء.

لم يسألني (مام حسن) عن مرامي ولا عن بندقيتي، إنما اقتسم معي خبزا ولبنا خاثرا وإبريق شاي.

قبل أن أتذكر قدسية الزاد مددت يدي، بحكم العادة، إلى كسرة الخبز.

– بسم الله الرحمن...

... بهذه البسملة المشددة قطع علي عجالتي إلى الطعام، وتذكرت فجأة إننا

نأكل زادنا مباشرة أمام الخالق لا يفصلنا عنه سقف..

تلتمع شمس الظهيرة على صحون الطعام المعدنية، ويأخذ الماء في الطاسة لون السماء والسحب البيض المتناثرة فيها. وتحرك الريح فتات الخبز الناعم وتختلط بالطعام رائحة الأرض التي حرثها (مام حسن). وبدأت أكل بأناة فأزن اللقمة قبل أن ابلعها، لأن صاحب الدار دعا الله ثالثنا على صينية الطعام الزاهد.. يخاطبه أكثر ما يخاطبني ويتذكر اسمه مع كل كسر خبز وجرعة ماء. ويناشده أن يجعل لقمتنا هنية مباركة. وبدا لي الإله، عند تلك المائدة، فلاح طويل مكدود، حرث الأرض قبل قليل «فأخرجت عشبا وبقلا يبزر بزرا وشجرا يحمل ثماراً فيه بزره كجنسها ورأى كل ذلك حسن» فاستراح. وله رائحة العرق المداف بالتراب. وكنت اقتسم معه كسرة الخبز وطاسه الماء. ويكاد يبتسم لي كلما رفعت وجهي من الطعام : «لتكن لقمتك هنية مباركة!»

أردت أن اشكر مام حسن على الطعام فوضع كفه أمام وجهي:

- اشكره أولا!

وأشار بإصبعه إلى السماء.

- ... أنا مثلك ضيف على مائدته.

قبل أن اكسر الصمت بـ «أريد أن أسألك يا مام حسن؟»، التفت بحدة واتقدت عيناه لتتابع نقطة مبهمة تنأى عنه:

- هل سمعتها؟

سألني بدهشة طفل.

- ما هي؟

- النحلة التي مرّت بهذا الاتجاه.. معقول؟ أن توجد قرب شجرات الزعرور خلية نحل جديدة؟

لم يكن غاضبا ولا مخذولا، فكلما عرف خفايا الطبيعة توقع منها مزيدا من الغرائب... نهض ليتابع مسار النحلة بحذر شديد... يسير نحو شجرات الزعرور، كما في حلم، يمس الأرض مسا خفيفا يتسمع بقايا الأزيز، ويتلمس

بأصابعه خيطا خفيا تركته النحلة خلفها. سرت وراءه وكان سحر النحلة قد مسّني أيضا... تقوس جسده وسط الأكمه وانفرجت ذراعاه كذئب عجوز شم رائحة قريبة.. لقد عثر على الكنز: ففي درنات شجرة العفص الخاوية المريضة وجد النحل دروب القصر المسحور.. وقد امتلأ الجو حولنا بأزيزه المتقاطع... لا فراغ للدهشة عند مام حسن، فقد ذهب مسرعا إلى منحلته وركع على الأرض فيما يشبه الصلاة... عندما اقتربت منه وجدته ينفخ النار في المجمرة الطينية ويوجه خيط الدخان المنبعث منها نحو سلال المنحل:

- دخان غصن العرعر سيدوخ النحل المقيم فيه.

لم يترك لي مجالا للاستفسار. فقد استحوذ عليه نشاط فرح. وحمل عصا طليت نهايتها بشمع العسل وتسلل وئيدا نحو شجرة العفص العجوز... لم اسمع الرموز السحرية المهموسة التي تمتم بها. رأيته يلوح بنهاية عصاه، فدوم النحل الباحث عن رائحة الشمع حولها، وتبعها كما يتبع مزمار الساحر...

كرر العملية مرارا حتى فتح في الهواء ممرا سحريا من همس ورائحة، يقود أسراب النحل من الشجرة العجوز إلى المنحلة... بقيت مقرفصا ذاهلا أراقب تسلل النحل الجديد بين قصب السلال، والانهماك المرح الذي استحوذ على مام حسن وهو ينفخ في المجمرة الطينية:

- بعد قليل (قال بحشرجة منفعلة) سيستيقظ أهل الدار من خدرهم فيجدون الغرباء قد احتلوا بيوتهم.

- سيهاجمونهم؟

= لا... سينامون عند العتبة حتى يضنيهم الانتظار فيبنون بيوتا جديدة.. مثلنا نحن، مع فارق: الغرباء أحرقوا بيوتنا.

... لم ينظر إلى القرية المحروقة، إنما اتجهت إصبعه نحوها كمؤشر البوصلة... دائما يقدم (مام حسن) ما حدث لقريته مثلا للتحذير.. فيوم جاء المغاوير ليحرقوا القرية، كان قد سلم سلاحه توا للحكومة.. لم يكن واثقا بوعدها، لكنه لا يملك غير أن يفعل ذلك. وكانت رائحة الأرض بعد ذوبان الثلج

مثيرة مثل امرأة عرقانة. لذلك استبدل بندقيته بمحراث. وقد شق أول خطوط الحراثة، وهو دار بالذي سيحدث. وكان بإمكانه أن يختفي في شعاب الجبل، حين سمع هدير الطائرات القادمة، لكنه انتظرها كقدر... لم يصرخ ولم يشتم أحدا حين أخرجوه من بيته، إنما سار أمامهم نحو الساحة مثل كتلة من لحم رخو. اتجه نحو الساحة حيث جمع بقية الرجال، الذين لم تمح آثار حمالات السلاح من أكتافهم بعد.. وكان إطلاق النار عليهم هو النهاية المنطقية لمشهد كهذا. وقد بحث مام حسن عن جدار يسند إليه ظهره. لم يكن خائفا و لا حزينا.. إنما فعل كل ما أرادوه، في نوع من الشماتة بالنفس. ولم يتحرك أبدا حين التهم لسان النار بيوت القرية التي نقعت بالكيروسين. فقط أضاءت النار وجهه الساخر بلون وحشي.. وتمنى وقتها لو أن واحدا من هؤلاء المغاوير درى بالذي فيه، وسدد إليه شريطا من البرق ينهي حياته... لم يبك مام حسن كثيرا على أطلال قريته، ولم ينتظر ربيعا أخر، إنما تسلل ذات ليلة من المجمعات المحاصرة إلى قريته، في قرار يشبه الانتحار وأعاد بناء بيته من الحجارة المحروقة نفسها، حجرا حجرا، وعاود حراثة الحقل، لديه أمل ضعيف بأن آخرين سيقتدون به وأمل كبير بشهادة الموتى على انه عاد...

سرت معه في الحقل وحوله، وأنا أتصفح الأرض ككتاب صعب. أراقبها بفضول، بينما فتت مام حسن كتل التراب فيها بأصابعه وتغلغل ترابها في رئتيه:

- اليوم سيظهر هنا رأس الريباز الأحمر...

وبين آونة وأخرى تستوقفني حدبة من تراب تخلخل بعد انسحاب الثلج «امن الممكن أن يكون رأس الريباز الأحمر تحتها؟ سأنتظر غدا في مكان كهذا لأتاكد!»

- بعده بيومين ستظهر عشبه المسلول... البرق، سيفجر بقية النباتات: ميل الكحل، سوسنات ديك الزرع، العرعر والحرسنة الثلجية.

... لم يتمطق مام حسن هذه الأسماء والمعارف، ولم يقلها بتباه. فقد نسي

معارفه وتجاوزها إلى الفعل، كأنه يذكر الأرض بواجباتها وبميلاد كل نبته واندثارها فيها معتمدا على ساعة السماء العجيبة التي تحدد أرقامها القمر والمطر والعاصفة...

جلسنا لنستريح عند الصخور الناضحة، حيث تزاحمت الشجيرات الشعرية: «كزبرة البئر»! وتطلعت إلى بقعة من الأرض بين قدمي وضبطت أنفاسي لأسمع صوت التراب يخشخش ويصطك من دفع ملايين البراعم. وشعرت برعدة مفاجئة لأنني محاط بعالم يتحرك بمعزل عني وعن درايتي: تراب يتخلخل، ديدان تخرج من كهوفها الشتوية لتشق طريقها إلى السطح، أشجار تنزع جلدها الشتوي اليابس، جذور تمتد عميقا، أملاح وحوامض تتفاعل في شعيرات النبات الصاعدة النازلة: «أين كنت عن كل هذا؟».. لقد ضيعني هذا الرجل في غابة من أسئلة شائكة دون أن أسجل في دفتري كلمة واحدة. لكنه نقلني من الدهشة الطيبة إلى الحيرة حين تحتم علي لكي اعرف و أن ابدأ بالزهرة من جذورها تحت التراب.

– كيف عرفت ذلك يا مام حسن؟

– أنا؟!

سألني بدهشة واستنكار.

– ... الله وحده هو العارف، ولست أكثر من فلاح في أرضه.

ثم التفت إلى كمن تذكر شيئا:

– أتؤمن بالله؟

_أ... أحيانا!

– عندما تحتاج إليه؟

– ...

– ابتعد عني بخطوات عصبية. وبقدمه أزاح الدجاجة ففرت بإتجاه الحقل وهي تقاقي. التقط البيضة الدافئة المدماة ووضعها أمام عيني.

- أترى هذا الحصن المكنون؟.. تحت جلده الغليظ جلد رقيق. وتحته ذهبة مائعة وفضة ذائبة. ومع ذلك لا تختلطان.. هل لك أن تخبرني إن كانت صالحة أم فاسدة؟ ذكر فيها أم أنثى؟... خذها معك وفكر، وقل لي فيما بعد، إذا وجدت فيها شيئا غير سر الله!

عندما غادرت كان النحل ما يزال يئز على الطريق الهوائي الذي فتحه مام حسن بين الشجرة العجوز والمنحلة، وكان طير حجل قد سقط في واحد من الفخاخ التي نصبها قرب عين الماء، ويزغرد الماء في الساقية الذاهبة إلى حقله... أدوس الأرض بهدوء شديد لأخفف وطأتي على البراعم التي تدفع التراب بظهرها المزغب.. كل ما فيها يمت بصلة إلى حقل الرجل الوحيد الذي عاد إلى القرية بعد الحريق ووضع لمساته عليها ومعارفه فيها.. وما عاد بإمكاني أن ارفع عيني عن الأرض التي تطرح عليّ سؤال بعد سؤال.

... في القاعدة تبدد العالم السحري وسط أحاديث عن هجوم واسع قد يشمل قاعدتنا. انتظرت اسمي في جدول الحراسات والكمائن وذهبت وحيدا ألف معطفي على أسرار عرفتها لوحدي... لم انتظر كثيرا.. خفقت البيضة في المقلاة واستغرقتني رائحة السمن الذي خلط «ذهبتها بفضتها الذائبة» ولم أجد في البيضة غير سر الدجاجة...لكن عيني بقت خلال الحراسة عالقة بذلك الضوء الوحيد الذي يشع من نافذة بيت (مام حسن) وأنا جالس على الطريق الموصل إليه.. أصابعي على فوهة البندقية وذهني يترسم حركاته البطيئة البارعة «ماذا تراه يفعل الآن.. يشحذ أسنان مذراته؟ يضع العلف في مذود حصانه؟ يحرك جمر مدفأته بالمسعار؟.... متى ينام حارس الطبيعة وحافظ سجلها؟»

نصيرات

من هذه الطالعة من البرية كأعمدة من دخان؟

نشيد الإنشاد

من (بهدينان) وصلت مفرزة الجمال والقوة: سبع فتيات، قطع بعضهن الدراسة في أوروبا المترفة وجئن إلى العراق القاتل أو القتيل عبر الجبل القاسي.

يقود المفرزة رجال المهمات الصعبة وأولهم عامل البناء المشاكس أبو كريم المرح الذي يمثل دور العاشق الولهان بين معشوقات مترفعات... (كانت رحلة الاختبارات)..

..هكذا وصف تلك الرحلة.. الجمال والقوة كانا يتحديان ويمتحنان بعضهما طول الطريق. وكان (الزاب) الداوي العنيف طرفا في الاختبار.. خلع رجال الطريق سراويلهم وجعب الرصاص ودخلوا مع البغال في التيار الجارف ليتلمسوا الممر الأسهل في هذا النهر الصعب. وعلى الضفة وقفت النصيرات الجديدات متواترات باسمات يقلبن الممكن والمستحيل: هل نستطيع؟! ويكسرن التردد بالمزاح، فهمست أحداهن بتخابث:

- هل سنخلع ملابسنا مثلهم؟

- إذا تطلب الأمر تخيلي نفسك في بلاج أوربي!

وكانت (أمال) تعبر شيئا عسيرا في داخلها وهي تراقب زميلها الذي خدعته شجاعته وقرب الضفة الأخرى فدخل النهر قبل أن يتلمس قاعه. انزلقت قدمه على الصخرة الملساء. اختل شيء كبير في داخلها عندما سقط زميلها، لكنها شدت إرادتها إلى إرادته بحبل من الوهم حتى نهض ثانية من صدمة الماء.

تصلبت ساقاها حين جاء دورها في العبور.. ففي هذا التيار العارم ستمتحن أنوثتها القديمة بدون مزاح وبمعونة قاسية.

كان أمر المفرزة القادم إليها من الضفة الأخرى يتلمس الحجارة ثم تتشبث قدمه العريضة بها كاليد العنيدة. وتتكور ربلة ساقه حين ينقل ثقل جسده... لم تربكه سورات الماء ولا دويه. لأنه يقاوم التيار دون أن يراه أو يسمعه.. منهمك

باستحضار نقاط القوة والتوازن في جسده وهو يتلمس قاع النهر بقدميه ويقاوم بصدره قوة التيار المراوغة. و قف وسط النهر مثل شجرة عارية قديمة ونظر إلى آمال، دون أن يسميها ناداها:

– تعالي!

للحظة تملكتها بهجة الأنثى وهي تمس جلد الماء بباطن قدمها. تسلق الماء الجارف ساقيها بدفقات نشيطة ثم شهقت وارتج صدرها حين مس بطنها. أرادت أن تعود حين سمعت صوتا يستحثها وسط الدوى:

– خطوة أخرى واثبتي!

لكن الماء دخل قميصها واخذ يرغي ويتلاطم حول خصرها بإلحاح يريد اغتصاب إرادتها المرتبكة. ضاعت من عينها اليد الممدودة إليها. فقد شغلها الماء، غمر إرادتها قبل جسدها وبدا لا نهائيا في مداه وقسوته... يتجه إليها بالتحديد بكل قواه. وانحل حبل إرادتها للحظة فكادت تستسلم لوهن لذيذ بدا من ساقيها حين سمعت صرخة باتة:

– ارفعي رأسك عن الماء!

... لكن الماء افلت من حدوده وغمر الاتجاهات فدخلت سورة لا قرار لها.. دارت أشجار الجوز والسماء وحجارة الجبل. دار الدم في الرأس وحدود الأفكار، واختلطت الأزمنة.

... رأت وجوها على الضفتين وسمعت كلمات تناديها «ثبتي، سآتي إليك! ارم الحبل! ساعدوها!»، لكن الوجوه فقدت حدودها واختلطت الكلمات بالدوي. وماد جسدها مع التيار حين امتدت اذرع الماء الكثيرة النهمة إلى صدرها.. ومع ذلك تقدمت خطوة باتجاه اليد الممدودة إليها في قلب السورة.. خطوة أخيرة ويائسة. قبل أن... التفت حول خصرها يد قوية قاسية فأسلمت لها باسترخاء وارتفع جسدها فوق قاع النهر. وعندما أفلتت من زوبعة الماء رأت حدود الأشياء بعد زمن من الغياب.. رأت كتف آمر المفرزة وذراعه التي تصد موجات الماء وأصابع يده التي تتشبث بحافات الصخور. رأت رفاقا يدخلون النهر لمساعدتها. ضايقها

ثقل جسدها فأرادت أن تقف قليلا على قدميها. وحالما وصلت الماء الضحل المزغرد على الحصى قلصت جسدها كقطة و أفلتت من كلابة يده وانتصبت على الأرض مبتسمة خجلة ومكابرة. تتحاشى عيون الآخرين وهي تسوي ملابسها كأنها تحاول إخفاء وشم مخجل تركه الماء على جسدها اللدن المبلول النشيط. شعرت بشيء من الخفة لأنها تركت في ذلك التيار المدوي إرثا من مخاوف الأنثى الأليفة ومحاذيرها . وودعت على الضفة الأخرى أمها الكامنة التي تحدد لها باستمرار حدود الرجل عن الأنثى وترسم لها حيزا من الاستكانة والسلام مع النفس. وأمام رقابة رجال هازلين تحتم عليها منذ الآن أن تتلمس عضلات قوتها. قد يكون التشبه بالرجال دفاعا أوليا ضد ضعف الأنثى. لكن، يجب أن تكون جديرة بما اختارته.

***

عندما وصلت أخبار مفرزة النصيرات تحرك في أشجار الحب الجافة جذر طري وعنيف.. فقبل ذلك كان المقاتلون قد سلموا بأن الجبل هو جبل الرجال فقط. وشيئا فشيئا تناءت المرأة في خيال الرجال وازدحمت الذاكرة بالشوارب الكثة واللحى. وعندما نعثر في إحدى المجلات على صورة امرأة ننظر إليها بإمعان ودهشة: هذا المخلوق الجميل يمت للعالم المترف البعيد! واحد من المقاتلين اخبرني بأسف شديد بأنه كاد أن يظفر أمس بامرأة في الحلم... لكن ما أن مد ذراعه نحو خصرها حتى نبتت لها شوارب وامتد بين يدي (يه) قاذفة (بي ٧)!...

«منذ كم قرن لم نر امرأة؟».. لقد كدنا ننسى إن للمرأة خصرا نحيلا ونهدين وسره.. صارت المرأة في مخيلتنا تجريدا كالفكرة أو الأمل... وما أن وصل الخبر «سبع بنات دفعة واحدة!» حتى اخذ شيء ما يزغرد فينا. وبدا سراب المرأة المستحيل يومئ في الداخل وتصير له ملامح تلذع قلوبنا كالفلفل.

تململ أولا الشبان الصغار الذين صعدوا الجبل الموحش وجاوروا الموت قبل أن يقبلوا امرأة أو حتى ولا امسكوا يدها... وباضطراب اقل ولهفة اشد الرجال الذين وصلوا سنوات القرار فهيؤوا أنفسهم لعلاقة حب خاتمتها (على سنة الله

ورسوله)... كلهم حلقوا لحاهم وعدلوا قيافتهم وزيتوا البنادق ولمعوها. ومع الخبر اكتشفوا كل ما هو رخيم ومترف وطري في حياتهم. استعادوا كلمات سقطت من قاموسهم: أنت، عينيك، أحب، رشيقة، معجب، انسجام،، خجل...

في اليوم التالي جاءت (مفرزة البنات) من الممر العالي فتجمع المقاتلون المهيؤون للتلاقي عند نهاية الممر. وقبل أن تتوضح وجوههن، تزاحمت في الذاكرة كل أسماء ووجوه النساء اللواتي عرفوهن أو أرادوهن. قبيحات أو جميلات؟... المهم إن كل واحدة منهن جاءت سفيرة نساء العالم إلى جبل الرجال الجهم...

توقف العمل بفعل سحر النساء وتجمع المقاتلون على الممر يراقبون الجمال وهو يراوغ القوة.. ميس الأنثى وهو يفلت من ثبات المقاتلة في هذا المسير المربك نحونا... ونحن نحيي بعضنا تملكتنا حرارة مربكة. فقد اصطفق شيء ما في صدورنا وتحرك في عيوننا ماء رائق وتندت راحتنا. وكان التلامس مشحونا خفيفا كلمس الأرنب.

اعرف واحدة منهن كانت أكثر بياضا و بدانة.. ألان حمصت وجهها شمس السهوب وغزل المسير الصعب جسدها.. حيت الآخرين بثبات رياضي والبندقية (المظلية) تهتز على ظهرها مع كل مصافحة: «من أين استعارت المغناج هذا الصوت المجلجل!؟».. رمشت عيونها وتبللت شفتاها وهي تكرر شوقها إلى الأيام الخوالي.

تمددن على العشب ووضعن البنادق أمامهن كما يسترحن دائما في المفرزة.وقد حف بهن الرفاق ملهوفين وخجلين، بينما بقي الذين أعاقهم الخجل يكسرون رغبتهم بالسخرية العالية.

ما الذي تغير فيهن وأربكنا إلى هذه الدرجة؟ رغم هذه الخشونة الظاهرة والملابس الفضفاضة كنا نتلمس جمالا واضحا مستترا، جمالا لا يسمى ولا يوصف.

تمددت (ن) مسترخية على العشب.رغم الأعياء طفح وجهها بحساسية بهيجة بلفته سريعة أزاحت الخصلة المتدلية على عينها فتحركت بسرعة وهي تتحدث عن

تجربتها كإمرأة مقاتلة:

بدأت تجربتها في الجبل بتوتر موصول.. صراع مع النفس، يصل حد البكاء أحيانا... فالمرأة القديمة تريد أن تتوحد مع أنوثتها وتجد نفسها دائما بلا جدران، في أماكن مزدحمة بالرجال... وعليها أن تقاوم إغراء البيت المستقر في أعمق أعماقها... هنا قد لا تجد رفا صغيرا للمرآة وأدوات الزينة الزاهدة. لأن عليها أن تحمل (بيتها) حقيبة عسكرية على الظهر وتجوب الجبال الوعرة..

بعد عامين من التجوال في المفارز اقتحمت (م) ورفاقها بيت واحد من مخابرات السلطة.. كان عليها أن تفتش البيت بحثا عن سلاحه. عندما دخلت المطبخ شبت في داخلها الأنثى المنسية.. فقد أخذها لمعان الصحون والملاعق المصفوفة على الرف. " دون شعور، نسيت مهمتي وفتحت البراد الأبيض" تلمست الخضار المغسولة فتسرب برد الأشياء إلى قلبها... ثم دخلت غرفة النوم فجرها إلى هذا السرير. "أوشكت أن ترمي نفسها عليه " كما كانت تفعل عند عودتها من الجامعة، لكن أمر المجموعة ناداها من الغرفة الأخرى لتسرع قبل أن تتحرك الربايا العسكرية. وقد استلها هذا النداء من غيبوبتها الناعمة. في الحال بدأت تقلب الافرشة بفضفاضة كأنها تهاجم نقطة ضعف فيها.

الرفيقة الثانية في المفرزة (ن) خاضت نقاشا ملتبسا مع زوجة رجل المخابرات. توهمت الزوجة، وربما ارادت أن تتوهم وتوهم الآخرين بأن زوجها مجرد موظف في الحكومة، وإن الكلام الذي تفوهت به النصيرة عن قيامه بتعذيب سجناء محض افتراء على هذا الرجل الجالس بارتباك بدشداشته البيضاء وحوله أولاده بينما الفوهة موجهة الى صدره. لم ينطق طوال الجدل بكلمة واحدة تاركا لزوجته أن تدافع عنه. قبل أن يغادر البيت مخفورا التفت للمرة الأخيرة بشيء من اعتذار ذليل لزوجته وبنتيه. صار أسيرا بعد أن كان آسرا فقد انقلبت المعادلة عليه.

حين غادرت البيت الدافيء المفروش أحست (ن) بغصة «كأنني تركت بيتي». بدت كلمة (نصيرة) غريبة، بل وشاذة في المجتمعات القروية المعزولة؟؟... فوجود

النساء في المفارز المقاتلة أثار التباسا في عادات الفلاحين وبداهاتهم، لأن كلمة (البيشمركة) تعني الرجال فقط، ولذلك اعدوا المرأة التي تتجول مع الرجال، في شعاب الجبل فاسقة أو مسترجلة. النصيرة تصرفت مع القرية بود دفاعي فحل العجب تدريجيا محل الاستنكار وتفككت القرية في نظرها للنصيرات...

عندما دخلت (ن) إلى القرية أحاطتها النساء عند عين الماء وتلمسن صدرها ليتأكدن إنها امرأة. وكانت الأسئلة تتقاطع مع دهشات العجب " أين نمت؟ كيف تصرف معك الرجال؟ هل أنت متزوجة؟ ولك أطفال؟"... لن يطول العجب.. فالعقل الريفي يحيل كل ما يستعصى عليه الى قدرات الخالق التي لا تقبل المناقشة...

بتكرار الزيارات والأحاديث الحميمة، يقبلن هذه الأخت الغريبة في الشكل والطباع الصعبة. ويستيقظ من الركون الأبدي، الذي يريح نساء القرى، إحساسهن بالقيد الذي تغلغل في لحم الجسد والدماغ. وتتنافر الأسئلة الموجهة للذات وللقسمة السيئة... وهنا يتدخل الوالد العجوز ليسقط هيبة النصيرة في عيون بناته وزوجته. ولا سلاح لديه غير الصراخ: «ماذا تفعلين هنا! أي نوع من النساء أنت! وأي نوع من الرجال والدك! لو كان رجلا عن حق لستَرك بزوج وأطفال»...

ويرفض العجوز أن يؤوي هذه (المسترجلة) بين نسائه المتحفزات للرد عليه. خائف من تآلف نسائه مع هذا المثل الآخر للمرأة..

في تلك الليلة تأتي ابنته المتزوجة سابحة في دمها.. لقد ضربها زوجها بقسوة لا يعامل بها بغلته وكلبه. بكاء البنت يستثير غضب الوالد العجوز ويفور الدم في عروقه فيذهب ليعاقب صهره بالعكازة. ولكن الصهر يزيحه بدفعة خفيفة. فيكتشف الوالد بألم وهن عضلاته ويخجل من ضعفه أمام ابنته التي جاءت لتحتمي به.

وهو عائد الى البيت يصادف النصيرة التي طردها قبل قليل. كانت تحرس طريق القرية. يسألها أن تعطيه البندقية ليقتل صهره (النذل) برصاصة لا تحتاج

الى عضلات. ترفض النصيرة دونما تشنج أو اهانة: " ليس لغرض كهذا أودعت هذه البندقية ".

يدور حولها بارتباك ويسألها مستبدلا بالصراخ التوسل: «انظري ماذا فعل بإبنتي الشابة!» تذهب النصيرة الى بيت الصهر لترد شيئا من كرامة واحدة من جنسها. لن ترفع بوجهه البندقية، إنما سلاح أكثر ألما: «خير لك أن تستعرض رجولتك على حواجز الحكومة التي تذلك كل يوم، بدلا من هذه المسكينة»... يحاول إفهام النصيرة المسلحة بأنه يضرب زوجته كل أسبوع وان هذا الزعل أمر مألوف بينهما. لا تقبل النصيرة حججه، بل تأمره أن يذهب الى أمر المفرزة ليعاقبه... ولكن الصهر يقنع النصيرة بمساومة : «ما رأيك أن اعتذر لها أمامك وأمام أهلها؟»... وهكذا يفعل... وبأي خجل سيواجه الوالد العجوز هذه المرأة القوية التي طردها قبل قليل من بيته. ومع ذلك أعادت له كرامته دون منة. ولن تطلب البنات موافقة الوالد العجوز. سيأخذن أختهن الشجاعة الى البيت باحتفاء فخور.

بعد أيام تدخل مفرزة يحف بها الأطفال ويسبقونها مبشرين أهل القرية: «البنت أسرت ضابط السيطرة!». وكانت النصيرة التي تتقدم المفرزة تدفع أمامها عسكريا كث الشاربين ضخم الجثة عذب سكان القرى وعامل رجالها بإذلال. لأول مرة سيتقدم رجال القرية لينظروا لوجه جلادهم شامتين، وربما يبصقون بوجهه... وسيدرك سكان القرية أن المقاتلة ليست مجرد بدعة للإثارة. وسينسج الخيال الريفي المبالغ الأساطير حول بطولاتها. وستردد النساء هذا المثل بصوت عال أمام الرجال. وقد يعاودن عجن روث البقر، ولكن بألم يتصل بأمل بعيد لم يفهمنه بعد...

بإيجاز وإعياء تتحدث النصيرة عن تجاربها. ولن تتوج كلامها بالخطب. خلال الحديث تساند نظراتي بنظرة لا حرج فيها. وأنا اسمع هذه الخبرات الثرية عرفت سر الجمال العسير الوصف الذي أربكني. انه جمال الحرية التي تنشط الدم.. فخلف هذه القشرة اليابسة الموشكة على السقوط، والتي تمت للعائلة القديمة،، تبدو كما الآن نظارة القشرة الجديدة للشجرة الفتية.

في المدينة كنا نرى الفتيات الريفيات اللواتي تحّررن توا من العباءة... أجسادهن تتلوى لتخفي رموز الأنوثة المخجلة.. فالعنق مقوس وقد انسدل الرأس وتقارب الكتفان لإخفاء النهود. والتصقت الساقان وأربكتا بعضهما لإخفاء (عورتهما). وتزاحم الحاجبان في انعقاد كئيب لإخفاء الرغبة في العيون القلقة.. لقد كانت أنوثة المرأة مقيدة بالبيت الذي هو وعاء العائلة وحشمتها المتوارثة.

في المفارز تفقد المرأة البيت والمستقر، ومعه المشط والمرآة ودولاب الملابس وكل ما يمت للجمال المنزلي.. لم تعد مالكة ولكنها لم تعد مملوكة أيضا. ولذلك تركت مع البيت والعباءة تلك الحشمة البرجوازية التي فرضت عليها، واكتسبت، وهي تجوب المخاطر مع الرجال طلاقة الفلاحة المنتجة وحرية الرجال الفاعلين. وهي تتملى هذه التجربة كما تتملى جسدها في المرأة انعكست هذه الحرية على تقاطيعها وجسدها. فقد اندفع الرأس قليلا الى الوراء يعب المشاهد والهواء. وانعكست رحابة الطبيعة على وجه لا ضعف فيه. وما عادت تخجل من (عورات) جسدها.. فقد اختبرته بما يكفي في الطرق الوعرة ووثقت به. ولذلك تقوس جسدها طليقا الى الأمام كأنها ستطلق الى الفضاء سهما من الضوء.. لقد حلّت الحرية محل الارتواء في هذه المرأة التي أربكتنا.

مفارز

الإنسان الذي يغامر بحياته يبطل أن يكون عبدا لها،

انه يتم فعل سيادة وحرية.

غايتا بيكون

عن مالرو

عجيب! نحن نسلك الطريق نفسها التي سلكناها سابقا، والتي سلكها قبلنا مقاتلون من فصائل أخرى. طريق أكثر بياضا وأقل خضرة مما حولها. سحقت أعشابها خطى الذين ساروا قبلنا وتركت البغال روثها عليها. ليس على جانبيها سياج يحدها ولا هاوية تحاذيها. طريق سهلية، ومع ذلك لانفكر بأن نحيد قليلا عنها. كانها الطريق الوحيد الذي يقودنا الى الحياة التي لاحياة بعدها اوحولها، مع أن الحياة موزعة بكل الإتجاهات، وكأن في نهايتها هدف واحد لاهدف غيره.

تتبع البغال رائحة الروث الذي تركته بغال قبلها، ونتبع نحن كالبغال الطرق التي سلكها الآخرون قبلنا. ونحن نحرك أيدينا نزيح المشاهد، بما فيها من جبال وقرى الى الخلف دون أن نستدير لننظر اليها. ننفيها ونتنفي معها كأننا محض ريح. لن نذهب بعيدا الى تلك القرية النائمة عند سفح الجبل رغم ما تعدنا به من دفء ورائحة خبز. لن نستمع لأشجار الحور وهي تصفر لنا لتدلنا على عين الماء، ولن ننظر إليها وهي ترقص لنا أوراقها مع الريح، فقد أخضعنا كل حواسنا ورغباتنا لأحكام الطريق. نسير بمحاذاتها، او ننحرف عنها قليلا لنصطاد غزالا أو طائر حجل، نتركها لنندس في بستان على جانبها لنقتطف خيارا او درنات بصل ونكتشف فيما بعد أننا عدنا دون أن ندري الى الطريق نفسها. لن نسأل: أين نحن ذاهبون، فالمفترض أننا لانذهب الى المكان، بل نغادر الأمكنة وحسب. كل ما نمر به خلال هذا المسير المتواصل، من قرى صغيرة في سفوح الجبال، رعاة تاهوا مع اعنامهم، فلاحين تركوا المذراة ووقفوا ينظرون إلينا بدهشة، كل هذا يتحول الى وجود طاريء بلا سيرة ولا تاريخ، يظهر أمامنا ليختفي خلفنا دون ان يترك أثرا...ننظر إلى مواقع أقدامنا ونحن ندوس الأرض توجسا من الألغام التي زرعتها الحكومة أو عصاة قبلنا، و ننظر قليلا أبعد من خطانا الى ممر غادر سنجتازه عما قليل ونتخيل أعداءنا عند منعطف فيه وقد



لبسوا عباءة الموت السوداء و كتموا اصواتهم بانتظار غفلتنا عن الكمين.

- في كل جبل مهما بدا عصيا وشامخا نقطة ضعف، منها نبدأ الصعود.

- أتبع الطريق خطوة خطوة وأضبط الشهيق والزفير مع وقع خطواتك!

- حاول، حين يجهدك السير أن تستريح وأنت واقف، حتى لاتبرد عضلاتك!

- الجبال كالعمر. لا تنظر أمامك لما تبقى، أنما خلفك لما قطعته!

الطريق نفسها،الممرات نفسها و الإستراحة نفسها.

كل المحاذير تقول لنا إن مقتل المقاتل يكمن في العادة والتكرار. فالكمائن وغارات الطيران والألغام المزروعة تتوزع على الطرق الثابتة وبالتحديد حين تستنفذ الطرق طاقة أجسادكم فترخون احزمة السلاح وتتمددون عند عيون الماء. مع ذلك سنترك كل المساحات لنستمر من الوادي نفسه، ومن بين الربيتين اللتين قطعتا طريقنا مرارا بقذائف الهاون أو برصاصات التحذير. ومادمنا قد تركنا كل الممرات والمساحات الرحبة وسلكنا الطريق نفسها، سنستريح إذن عند عين الماء التي تركنا تحت صخورها أكياس السكر والشاي وحزم الحطب إحتياطا لاحتمال عودتنا ثانية.

- هنا تنتشر السرية!

... لم يسأل المقاتلون عن اسم المكان ولا سبب اختياره. يكفيهم الماء سببا واسما. فمنذ أن سمعوا هديره تبددت الاتجاهات ونسوا تضاريس الأرض التي أنهكتهم.. لقد سحرهم الرذاذ الذي مسّ وجهوهم الساخنة فدخلوا المكان دون أن يروا بابه.

لقد اختارت السرية لاستراحتها التي تسبق الهجوم طاسه من الحجر الأملس المطحلب. يأتيها الشلال من اعلى الجدار الجبلي فينفجر شعاعا ورغوة ثم يسقط في طاسه الحجر فتهد غضبه ثم تبدده في ثنيات الغابة وظلالها الباردة.

صعد الحرس للمراباة فوق القمم قبل أن يمسوا الماء. وهم الباقون الى الشلال فأعطاهم الماء إيعازا بإشعال النار. يسقط ماء الشلال عليهم وسط غيمة من رذاذ يسف مع الريح. وبين الماء والحجر بدت أجسادهم وكأنها تتكون من ماء وطين... أتفقدهم من موقع الحراسة العالية لأسميهم واحدا، واحدا. لكن عيني لا تستطيع للوهلة أن تقتطعهم من الطبيعة التي طبعت تفاصيلها عليهم وأدخلتهم بيسر في مساماتها.. فقد تركت الجبل أخاديدها العميقة في وجوههم وتأصل تراب السفح في جلودهم...

أسمع من موقع الحراسة كلماتهم مبتورة من الجمل:

- ثلاثة... طعام الحرس... سلة... قادش... في الساقية...

يمنعني هدير الشلال من ان ألم شتات الكلام، ولكنني اعرف صاحب هذا الصوت الطليق الذي لا تصدع فيه: صوت «شوان» الذي قادنا إلى هذا المكان واختار موقع الحراسة ثم وقف عند مدخل المضيق كمن يستقبلنا في بيته المفروش بالعشب البري وحجارة الجبل والمسقوف بسماء شديدة الوهج.

قبل أن نصل هذا المكان كان شوان يتقدم السرية. يتسلق القمم قبلنا ليستطلع الطريق بحذر غريزي. وكلما عاد إلينا فرش بضاعته: توت أو تين أو خيار قطفه من مزرعة على جانب الطريق أو جرة لبن من احد الرعاة. وكلما سمعنا رصاصة صحنا معا:

- صاد شوان غزالا.

لن يحدثنا طويلا عن الوسائل، لأن خياله لا يلتقط التفاصيل المتباهية. وكان ما فعله جزءا من أفعال استطرادية...

ذات غروب رأيته يعانق الرعاة ويشرب الشاي معهم ويعود منهم بخروف كسرت ساقه. سألته عن الرعاة:

- أنهم عمي وأولاده... يفترض أن أكون ألان معهم لولا التحاقي بالأنصار صدفة...

- صدفة!؟

- كنت في المغارة أتدفأ واسمع صوت رماية بعيدة. لم اقلق بالي بها، فقد خمنت: «إنهم يتقاتلون كما في كل ليلة». خرجت من مغارتي على نباح كلب القطيع، فرأيت شبحين يصعدان نحوي بهمة. كانا مسلحين جاءا من القتال توا وقالا إن لديهم جريحا بحاجة إلى نجدة عاجلة.

فكرت بما سيحصل للخراف لو تركت لوحدها وبما سيحصل لي إذا ذهبت إلى موقع قريب من القتال. ثم نهرت نفسي: «كن مرة اكبر من راعي يا شوان»!... أخذت البغل وذهبت معهم، وكان صوت الرصاص يقترب ويخط السماء بالمذنبات.

رفعت جسد الجريح دون أن أرى وجهه أو اسمع صوته وأخذته إلى مغارتي. ولكنه فارق الحياة قبل أن يقول لي كلمة، وأخذت سلاحه والتحقت.

.. هكذا لخص لي شوان تلك (الصدفة) التي غيرت حياته وترك لي أن أتصور الحرقة النبيلة حين عرف إن حياة رجل تتوقف عليه.. أخ له قضية تساوي أن يضحي بحياته من اجلها... من المؤكد أن شوان استهلك زيت روحه خلال المسيرة التي قطعها مع الجريح.. يقيس المسافة الباقية بعصب نافر، ويتوسل الجريح أن يتمسك بجذوة الحياة حتى يصلا المغارة. وقد نسي في لهفته انه لا يملك أكسيرا للعلاج غير قدح من حليب ساخن. وطوال الطريق حوم حول ذلك الجسد المتأرجح على ظهر البغل مثل ذبالة الروح القلقة.. يعدل نومه الجريح

ويغطيه بلباده ويرفعه فوق صخور الجبل بمحفة من آعصابه. ولشد ما أفزعه خيط الدم المتصل والجبين البارد:

- مات؟!

أهالوا عليه آخر حفنة من تراب ووضعوا شاهدته. وبينما تلوح ريح القمة جدائلهم وياقات معاطفهم تقدم احدهم ليقول بضع كلمات عن الشهيد:

- نودعه ولن ننساه... نفارقه ولن نفترق.. حاضر بيننا.

... كلمات قطعها صليل المجرفة وخشخشة التراب ونحيب احد المشيعين.. أصوات اقتطعت من مادة الصمت وتعود إليه برهافة، عالقة في الفراغ كالسحب.

للصمت ملمس الفقيد: حضور وغياب، جسد وذكرى، كلمة وجسم.

هذا الصمت الجليل قيد حركات المشيعين وأنفاسهم حتى سحبت الأقسام وأطلق الرماة رصاصات الوداع التي أفزعت الطيور والسناجب. وبعده حل صمت أليم يعصر القلب: «هنا انتهت حياته إذن؟!»...

نزل المشيعون من هواء القمم الخفيف فمست خطواتهم التراب كما الوهم. تلفتوا لبعضهم فشفت الوجوه عما يفوقها، لأن الفقيد ترك شيئا من التجرد على وجوه الإحياء. وتترجع كل كلمة تقال كأنها وصية.

تغيب تفاصيل العلاقات وقد اعتمرت القلوب بصفاء حزين وتلتم الجماعة وتتساند لتضغط المساحة الفارغة التي تركها الشهيد المواري في التراب.. كل واحد يغص بكلماته ويريد أن يبكي على اقرب كتف إليه..

لأيام سيحايلون الواقعة: لن يسموه شهيدا، بل يتحدثون عنه باسم المشاكسة والدلع. لن يخلوا مكانه في الخيمة ولن يرفعوا اسمه من جدول الحراسات. وستبقى بندقيته مركونة على الجدار.. قد يعود من إجازته ويأتي في غمامة الحلم ويقف بباب الخيمة، ويمد يده:

- بندقيتي!...

لكن لا الإنكار ولا الحركة النشيطة المتصلبة قادران على الغاء تلك المساحة

الفارغة الباردة التي يطوف فيها شبح الغائب... ففي لحظات لن تضبطها إرادة تقفز أمام العين أدل حركات الفقيد على الحياة وأقربها إلى طفولته: وهو يستحم تحت الشلال، واقف على التلة يهم بقذف كرة الثلج، يخوض غمار التيار الجارف حاملا عدته فوق رأسه.. صور تعصر الروح تفندها الحقيقة التي نقولها بصوت أعلى من الهمس: لقد مات!

وعندما نتأكد إن الموت غياب له وزن، وليس تجردا ولا استجماعا صافيا، سيخيم على مكان الفقيد ألم رصين مستتب يرتبط بالشهيد على نحو غامض، حتى وان لم يحمل ملامح وجهه.

وكلما مرت الأيام أصبح هذا الغياب ـ الحضور أكثر ديمومة ودلالة..

فقد تجرد الشهيد من صور ومشاهد مجزوءة إلى قيمة: سيصبح حكما على أفعال الأحياء، يشدهم إلى هذا البناء الحساس الذي كان جزءا منه ويصبح هذا الإرتباط جزءا من الوفاء لصداقة.

لم يبك عندما مدد جثة القتيل عند باب المغارة، بل جلس صامتا أمام أخ لا يعرف اسمه. شاحبا يرتجف أمام حياة انقطعت دون وداع. وبينه وبين جثة القتيل فراغ لا قرار له.. على هذا الفراغ البارد السحيق تمددت حياة الراعي بكل أحزانها ومسراتها الصغيرة. وقد هبت عليه، مع شهقات الحزن، ريح قاسية تخلط دون أن تغرف.

كان يتفرج على اضطراب حياته دون أسف. وما كانت كلمات السياسي التي قيلت على قبر الشهيد تعنيه كثيرا. فقد بدأ التحول أصلا من داخله.. من عمق سحيق ومنسي فيه. وقبل أن يتخذ القرار استدعى أنبل ما في حياته: يوما ساعد فيه على إطفاء حريق، بضع رصاصات أطلقها ابتهاجا بانتصار وطني، فدية دفعها لمقاتلين مروا... بهذه الأمثلة أراد أن يساند الإنسان الجديد الذي سيولد من راع... ثم اخذ بندقية الشهيد وقال:

– هيا!

أراقب الآن جسده المميز بين الجميع وهو ينتظر جفاف ملابسه المنشورة على

الحصى الحار. من المؤكد انه سيبتسم بسخرية إذا ذكرته بذلك العصر السالف الذي: «كان فيه راعيا يتدفأ في مغارته. يسمع صوت الرصاص ويقول لنفسه: إنهم يتقاتلون»!

تحته تمدد في البركة اصغر مقاتلي السرية.. لقد سكن على غير عادته. مغمضا عينيه كالغريق تاركا تيار الماء أن يأخذ جثته إلى مدينته العصية... لقد رأينا هذه المدينة قبل وصولنا إلى هنا... كنا نغذ السير على حدبة الجبل حين أخذني إلى ربوة وأزاح عن وجهي غصن بلوط وقال لي:

- ها هي زاخو مدينتي!

في السهل الممتد تحتنا كانت المدينة في الشواش الذي يسبق الخليقة. شيء يشبه الوهم والوعد. تنبئ عنها انفجارات الشمس على سطوحها البراقة وتردها رائحة الأرض القوية بعد العاصفة...

أعطاني ناظور (المقرب) وسألني:

- أترى بناية رصاصية يرفرف فوقها علم؟

- ...

- هذه مدرستي... وبعدها بشارع يقع بيتنا...

مال بجسمه باتجاه خط الوهم الذي يوصله إلى البيت. وصك أسنانه كمن يعض حلمة الهواء، ثمل بحليب أمه _ المدينة. ثم وضع أمام عيني ساعته التي تشير إلى الواحدة والنصف ظهرا:

- بعد قليل يصل والدي إلى البيت...

وسكت تاركا لي أن اسمع دورة المفاتيح الكتيمة في باب البيت ووشوشة الأكياس التي يحملها الوالد ثم أرى والده واقفا في إطار الباب متأهبا لصدمة الصغار... أغلق الوالد الباب وغرق في ضوء البيت البارد الرقيق غير دار بأننا نراقبه من ربوة عالية تطل على المدينة...

نادانا آمر المفرزة:

– حذار من أن تراكم الربايا!

وانسحبنا تراكين المدينة خلفنا، فقال لي ساخرا من سذاجته الأولى:

عندما تركت المدرسة والتحقت بالسرية، أخذت معي كتبي المدرسية معتقدا إننا سنسقط النظام قبل الامتحانات النهائية... وها هي السنة الثالثة تمر... لقد كبر ألان على أوهامه الأولى... ففي القرى يلتقي مقاتلنا الصغير بزملاء الدراسة.. يحتفون به بود بالغ ويميزون بندقيته وأحزمة الرصاص. وعندما تهدأ الأصوات يتذكر فارق التجربة فيغير لهجته معهم... يقطع الجمل ويزيد فترات الصمت أخذا من الرجال الكبار الإيجاز الدقيق للرجال الذين يفعلون أكثر مما يقولون. وسيكتفي بعض الزملاء بالإعجاب المستكين. ويقترب آخرون من ذلك القرار الذي سيلقي جانبا تحفظات العائلة والتزامات الدراسة ويقتربون من آمر السرية بوجل مرتبك:

– نريد أن نلتحق!

لقد كبر ألان على زملاء دراسته، ولكن ماء الشلال سيحرك فيه حيوية الصبي الذي نسيه.

يلتف السابحون حول طبيب المفرزة، فقد قال شيئا هاما أوقف الأصوات والحركات للحظة... لن يحتاج طبيب المفرزة إلى الحركات العنيفة والصوت العالي ليلفت انتباه سامعيه، ولم تنسه حياة المفارز تلك النبرة المرتفعة قليلا. لقد عودته مهنته إن لا يسهب في الوصف أو يكرر. إنما يقول ما هو ضروري فحسب. فللكلام عنده قيمة المشورة الطبية.

يمسح الطبيب جسمه بالماء قبل أن يدخل البركة بهدوء وهو ممتلئ بنفسه...فالطبيب في مفارزنا نجم حتى لو لم يرد ذلك. يحتفي به سكان القرى ومن خلاله بمفرزتنا ويوشك أن يأخذ بينهم مكان (الملا). لذلك يعدون اسمن الدجاجات لطعامه وربما فراش العرس لنومه... ويسبغ سكان القرى لقب (دكتور) على من يجيد قراءة محرار. فكيف إذا كان طبيبا حقيقيا؟! هذا الاحتفال الزائد يضايق طبيبنا فيتوارى وهو يدري إن خبرا قد سبقه:

- مع المفرزة الدكتور!

وقد بدأت سمعة طبيبنا تطوف القرى منذ أن أخرج رصاصة استقرت في ظهر شيخ. وتعززت بعد أن انقذ محتضرا بحبة (أسبرين)! اخذوا يصطنعون أمراضا ليشفيهم بلمسة سماعته المباركة... وكنت أرى رقاب الفلاحين تطول وتنعقد وجوههم من الدهشة وهم يراقبون يده البارعة تلمس جبهة المريض أو حين يغرز إبرته في ذراع المريض بمثل لمح البرق. وحين يمد يده إلى حقيبته الطبية الزاهدة، يتوقع الحاضرون ما يتوقعون من كيس الساحر. وتأخذ الأشياء البسيطة، كالسماعة أو جهاز قياس الضغط، في خيالهم صورة اللغز المحير... وعندما يفعل الطب فعله في المريض، أو يتوهم المريض ذلك، يحيل الفلاحون ذلك إلى معجزة الخالق: «ثمة بركة إلهية في هذه اليد التي تعيد للناس الحياة وهم على حافة القبر»..هذا الإيمان المطلق بقدرة الطبيب ونقاء دم الفلاحين من المواد الكيماوية، يجعل مفعول الدواء سريعا...

ومع ذلك فان طبيبنا يتعب من كثرة مراجعيه ومن إيمانهم المطلق بقدراته. هذا الإيمان يثقله بالخوف من الإخفاق...

كنا ندخل القرى بثقة حينما يكون في مفرزتنا طبيب: «نحن من القوة بحيث أخرجنا الطب من عيادته المترفة وحملناه إلى بيوتكم الرثة»! لذلك يتنافس المقاتلون على رفقة الطبيب ويأخذون جزءا من رفعته عندما يساعدوه في تجهيز إبره العلاج. وحين لايكون معنا يحملنا سكان القرى بعضا من دجاجاتهم:

- هذا أكثر مانملك خذوها للكتورة ساهرة!

- ... الدكتور كوران يده من ذهب، ويستاهل دجاجة من ذهب..

لن نوصل الوديعة، إنما سنعمل منها وليمة في الطريق ونوصل للأطباء الدعاء وحده!

عند الساقية يغسل الجندي الهارب ملابسه مقلدا دون أن يدري حركات أمه... يمسح قطرات العرق بقفا يده،يمط قامته عند النهوض، وينشر ملابسه على الحجر الساخن بحركات دقيقة. لكن عيونه لا تفارق السابحين تحت الشلال. هل

يعرف إن هناك من يراقبه خلسة؟ هناك شيء من الشك حول قصة هروبه من المعسكر:

- ... كنت في الحراسة _ هكذا قال _ عندما اخبرني العريف المناوب بأن أكون حذرا، لأن مجموعة من (المخربين) دخلت القرية القريبة... قلت لنفسي، عندما سمعت هذا التحذير: «هذه فرصتك للخلاص من الذل».. وهكذا تركت موقع الحراسة وتسللت إلى القرية. وقلت لأقرب فلاح فيها:

- أين أجدهم؟

وبعد التحاقه بسريتنا حققوا معه ساعات، ثم خرج المحقق مجهدا من تقليب الاحتمال ونقيضه وقال حكمه:

- هذا الجنوبي ذكي إلى الحد الذي يؤهله لأن يكون قائدا أو جاسوسا.. راقبوه!

مع ذلك يتحرك بيننا هذا الجندي الهارب مع سره المرائي. وقد قبل شكوكنا به وتغافل عن أعين المراقبين متسلحا بابتسامة أودعها كل ما فيه من طيب...وحتى الوقت الذي سيكسب فيه ثقتنا ويسترد بندقيته، تعود فن الخدمة وبرع فيه دون إحساس بالمهانة. يكفيه أن نقبله صديقا.

قريبا منه وقف (الوصولي) على حافة الماء، محدودبا طويلا. يتلفت حوله غير قادر على أن يكون أناه. لا يسبح ولا يقول للسابحين شيئا... فقط يحرك يديه بارتباك كمن يقول «لا فائدة»، ثم يعود ثانية وقد أربكه خلو المكان من الشهود.. غير قادر على القيام بعمل مفيد ما لم يره آمر السرية الذي يتغافل وجوده حتى وهو قريب منه.

لقد غير هذا الوصولي فكرتنا عن الوصولية. فعلمنا إنها غريزة قد تقتات من ذاتها أحيانا دون أن تطلب شيئا. ويمكنها أن تتجاور أحيانا مع الشجاعة وتظهر على مبعدة أمتار من الموت. فقد أصر الوصولي على أن يكون أول المهاجمين للرتل العسكري بشرط لم يعلنه: أن يراه آمر السرية وهو يهجم... وعندما عاد من العملية لم يكافئه آمر السرية بابتسامة تشجيعية. لذلك خلع ثقة

الشجاع وتمسكن معتذرا عن ذنب لم يقترفه.

... يصعد ضحك السابحين لنكتة كان الوصولي موضوعها بالتأكيد. لمعت الشمس العمودية على طول الماء الساقط. وبين الماء والرذاذ ولون الحجر بدت أجساد السابحين كأنها صنعت توا من ماء وحصى، وقد شفت بفعل الإعياء ومجاورة الخطر وأصبحت أكثر تقبلا لدفء الشمس وبرودة الماء ونسمات الهواء... لم يذكرهم أحد بأن استراحتهم هذه قد تكون الأخيرة، ومع ذلك كانوا يصنعون لذائذهم ويرتشفونها بنهم.. هذا الذي يلتقط التفاح الفج الطافي على الماء، وذاك النائم على الماء أو النائم على فراش من الأغصان وقد توسد رأسه بيديه... لم تفارقهم أبدا حيوية صبيان المحلة: الإشارات الطليقة المتناسبة مع رحابة الأمكنة، وسرعة العين التي تتنوع أمامها المشاهد بلا تكرار، نبرة الصوت الواضحة التي لا تصدها جدران والإيجاز الدقيق والارتخاء المسالم.. من يصدق إنهم بانتظار معركة وان المعسكرات العدوة على جانب الجبل التالي؟!

في زاوية ركينة لا اعرفها اجتمع مكتب السرية ليضع اللمسات الأخيرة للعملية التي ستنفذ بعد ساعات.. أتخيل رؤوسهم منكبة ساكنة تتجسد فيها الفرضيات ونقيضها.. بينهم آمر السرية (رؤوف) الواثق من نفسه المحب لها الخائف من أن يغلبه الخوف مرة أمام مقاتليه.. لقد افتقد تلقائية المقاتل يوم أصبح مسؤولا، لذلك بدا يحسب كلماته وحركاته بدقة متعبة. المسؤولية صارت من منغصات ضميره.. له قناع حازم يثير الخوف عندما يبوح لأحد بسر يهمسه.. هكذا هو وجهه ألان وهو يخطط، بالتأكيد على الأرض سهاما تتجه نحو دائرة في الوسط... الدائرة هي الهدف الذي سنهاجمه الليلة. وعلى السهام سيندفع الاقتحاميون.. وبينما يرسم خطة الهجوم، عليه أن يقدر الخسائر المحتملة دون أن يلتفت إلى رفاقه حتى لا يتصور أو يسمي من سيفقده منهم.

عما قليل سينزل ليبلغ المشاركين في العملية... وحتى الوقت الذي يتم فيه التبليغ، يسير كل شيء في هذا الوادي الممتلئ خضرة ورذاذا بمعزل عما يخطط مكتب السرية: فقد فتح المقاتلون صرر الطعام وجلسوا ثلاثات ليتناولوا طعامهم بإقبال وأريحية. ونام آخرون تحت الشجر أو مازال يسبحون ناسين بأن هذه

الأجساد التي يغسلونها بماء الشلال مرشحة لأن تتحول شيئا بقطعة مدببة من الرصاص الذي سيسد عليهم الليلة مساحات النجاة... لن يطرحوا على أنفسهم هذا الاحتمال قبل أوانه... لقد اغتسلوا ورتبوا قيافتهم دون أن يتذكروا كيف تعلموا عادة مجابهة الموت بقيافة كاملة وجسد نظيف.

عندما امتلأ الوادي بالظلال بدأت أميز الذين وقع عليهم الاختيار:

الراعي؟ بالتأكيد!... لن ينفعل إذا أخبروه لأنه يدري أن المفرزة لن تذهب دون الدليل.

الجندي الهارب.. يتحسس جسده وقدراته بقلق ليتأكد من جدارته أمام الانقلاب الذي أصاب حياته.. فقد أصبح مقاتلا في الجماعة التي كان يسميها «العدو»!... وقد اختاره آمر السرية ليقطع عليه خط التراجع. وبعدها ستتعزز ثقتنا فيه كلما ازداد يأسه من مغفرة السلطة والمدينة. اصغر مقاتلي السرية يدور حول نفسه محاولا منذ الآن تخفيف حرارة روحه التي قد تغلبه ساعة الاقتحام...

بعد قليل سينفصلون عنا ويلتفون حول الجبل.. سيسيرون مع النهير المهسهس الموشوش الراغي بين الحجارة،البارق كحد السيف تحت وهج الشمس والمكتفي بردا وسلاما في الظلال... سيذهبون دون اعتداد ولا أناشيد ثورية.. فالمعركة القادمة لن تكون الاختبار الأخير لشجاعتهم. ولن يراودهم الوهم بأنهم سيصنعون الملاحم والمعجزات. «سنقلق نومة السلطات ببضع قذائف». هكذا يجيبون إذا سئلوا. يضحكون إذا وصفتهم «أبطالا»: أية ملاحم!؟ كل ما في الأمر إننا سندخل بعد القذيفة الأولى وقبل أن يصحو الخصم من صدمة الانفجار... نستشهد؟ ومن قال لا... نحن لن نتراشق نويات المشمش!». يستبعدون الصور المهولة التي توتر الأعصاب، فالخبرة والمراس الصعب كونت لديهم صورة واقعية مختصرة لما يمكن أن يجري. ولذلك يفضلون إطفاء الدهشة بالحرفة لأن ذلك سيحررهم من وطأة المثال الثقيل... سعداء لأنهم لن يكونوا الأكثر مسؤولية والأكثر إضاءة في المجموعة الذاهبة إلى المعركة.

سنقتصد كثيرا في عواطفنا حين نودعهم. نوصيهم ببرودة وبوجوه منحاة جانبا: «حافظوا على أنفسكم»! وقد نكسر انفعالنا بتعديل قيافتهم. لن نلتفت اذا ما ذهبوا، إنما نستدير عند نقطة الافتراق لنذهب الى قرية قريبة. في الصمت الذي يسبق الغروب نتسمع لحظة ستدوي فيها المدافع، فيقول المساعد بفرح: «هذه مدافعنا»!

***

تسللوا من القرية في تلك الساعة التي يطفيء فيها الآخرون الاضوية ويعود أخر الضيوف إلى منزله. سلكوا طريقا خلفيا نسيته حتى كلاب القرية. بعض البيوت تشع ذلك الضوء الذابل الذي تنام عليه مخاوف الفلاحين من الليالي الغادرة. قرب جمر الموقد وجسد الزوجة المتعبة والحيوانات التي تخمخم بقي الفلاحون كما هم منذ مئات السنين، بينما ودع المقاتلون هذا الأمان وما زالت أجسادهم تحمل دفء الأغطية... ذابت أشباحهم تباعا في الظلمة الباردة للمضيق وذابت الأحاديث الهامسة في هدير الجدول ولم يبق إلا صليل الحصى تحت أقدامهم قاسيا متواترا. وكل خطوة في هذا المسير الصامت ابتعاد عن قرية الحياة المستكينة واقتراب من ساحة القاتل والقتيل.

- هل تأخر أحد؟

سأل (مام خضر كاكيل) وكان هذا أول إيذان بوجوده على رأس المفرزة و بأن الليلة ستكون حامية... لم ينتظر جواب مسؤولي المجموعات، إنما استمر يحسب أشباحه ويسميها بنبرة تجمع السؤال والجواب... وبينما يسمي مقاتليه يحسب تلقائيا قدرات كل واحد منهم وعيوبه. ولن يبحث طويلا عن الشواهد والبراهين. فما عاد في الوقت متسع للإطالة. لذلك اختزلت التفاصيل إلى أحكام قصيرة باتة:

(...) يرتبك قليلا عند الرصاصات الأولى.

(...) ينسى نفسه لحظة الاشتباك ويقف على طوله.

(...) يفقد نفسه وقد يصيب رفاقه.

عندما تأكد من اكتمال العدد بقي «مام خضر» يتحرك بين طرفي المفرزة شبحا متآلفا مع الليل، غير مرئي ولا مسموع.. يمس المقاتلين كالظل فيترك لمسة من التوثب الهادئ ويشد هواجس الأفراد إلى فعالية الجماعة الذاهبة إلى الهدف... قبل أن يعطي أخر التوجيهات سيبحث بدقة وسرعة عن الاحتمالات المتوارية في الزوايا المنسية من خبرته، لذلك ينبض صدغه من هذا الجهد العسير فيثبت عينيه في نقطة عصيّة تقع أمامه تماما.

... في نهاية المضيق يتسع الوادي قليلا وتنزاح جدران الجبل عن فضاء الخطر المسحور. آنذاك يشعر المقاتلون ببرد مفاجئ ورجة داخل الروح.. فقد مس السديم اللانهائي أرواحهم العارية المرهفة... إليهم تتجه هذه السماء الصافية وتخاطبهم باللغة المرتعشة الغمازة لنجومها الساطعة البريق كأنها دارية تماما بما سيفعلوه الليلة... تحت هذه السماء المفتوحة تستقر الربايا الحكومية فوق قمم مدببة تقسم الوادي وتسيطر على الطريق العريض العاري الذي سيجتازونه. وقد تحددت الحواف الهندسية لذة الربايا بضوء القمر الوشيك فأعطاها شكل القلاع المستحيلة. فوق هذه القمم ووراء جدران الاسمنت وحقول الألغام والأسلاك الشائكة تمترست السلطة لإستقبال غاراتنا كل ليلة.. لقد تجاورنا معها وعرفنا بعضنا جيدا. وحلت الأفعال محل الأحقاد.

... مرّت سنوات على دورة الكر والفر بيننا وبينها حتى نسينا ما الذي تغير بالضبط. نسينا إن المقاتل، وهو يهدم سقف الربية بقذائفه هدم قبل ذلك الكائن المستكين في داخله... لقد نسي الآن ذلك الطالب أو الموظف الصغير الذي علمه والده ومدرسته ودائرته أن السلطة قدر قاس لا مفر من قبوله، وأن عليه أن يقبل حكمها أو يزوغ عنه أو يتوسلها لتخفيف حكمها عليه،، هذا الإنسان الذي أرادت السلطة أن تلغيه أو تحوله إلى مجرد رقم في سجل الرعايا يخلق هنا من جديد... يتجه إلى السلطة ولا يهرب منها. يقلق نومها بدلا من أن يسترضيها. حتى أحلامه تبدلت هنا: ففي المدينة تأتي السلطة في الكابوس على شكل كائن بلا وجه.. قاض وجلاد يدخل بيته دون أن يدق الباب، حاملا اتهاما لا يقبل الطعن وحكما لا يقبل النقض. فيختنق (المتهم) الكامن فيه بصوته ويتكور على

السرير،غارقا في العرق، عاجزا عن أي شيء سوى الخوف وقد تكبلت أطرافه بحبل السلطة.

هنا تحرر الكائن النشيط المهاجم. حتى أحلامه أصبحت أحلاما عضلية: هجوم، قفز، إطلاق نار. يحدث الكابوس عندما تفرغ البندقية في الحلم من ذخيرتها...

يجد المقاتل متعة في أن يفعل بالضبط ما تمنعه السلطة: يقطع أسلاكها الشائكة ويلقي إلى الأرض لافتاتها التي تمنع أو تأمر ويعلق المنشورات الممنوعة على المراكز التي تقرر المنع... ويتمادى في مخالفة السلطة حتى عندما تكون على حق... فعندما أعلنت الحكومة توقيتها الصيفي رفض المقاتلون تغيير عقارب ساعاتهم، متلذذين بالتمايز بين «توقيت الحكومة» و «توقيت العصاة». تطربهم النعوت التي تطلقها الحكومة عليهم، «الأعداء أو المخربين» لأن هذه النعوت تؤيد انفصالهم عن هيمنة السلطة وتحولهم إلى كيان مقابل لها. تؤكد إنهم انتزعوا من أرواحهم أخر مسامير السلطة...

بعد الغارات اليومية تكف السلطة عن أن تكون ماردا لا وجه له. ففي المواجهات المسلحة يتعرف المقاتل على شكل السلطة الواقعي: إنسان له بطنه الرخوة التي يمكن أن يخترقها الرصاص. جندي ينبطح ويحني رأسه إذا ما أطلقت عليه النار ويهرب إذا ما خسر المعركة عندما امتلك المقاتل عنفه المعادل لعنف السلطة، لماذا إذن لا يكون البادئ بالهجوم؟

ذات يوم اقبل على السرية فلاح مذعور ليخبر آمر السرية:

- قوات المغاوير وصلت المنطقة!

- جيد!

- ما الجيد في الأمر؟! إنهم أكثر منا عشرات المرات.

- سنذهب لنصطاد عدد منهم!

لقد حسمت المعادلة بالنسبة له: إنسان سيقابل إنسان. لذلك يفضل أن يكون صيادا قبل أن يصبح طريدة. يذهب إلى السلطة بدلا من إن ينتظرها... ومن

الناحية العسكرية يسمى ذلك دفاعا وقائيا أو نقل المعركة إلى ساحة العدو... هذا الانتقال يتم أولا في داخل المقاتل بتحويل مخاوف الترقب السلبي إلى حماس الفعل الايجابي. ويبتكر خيال المقاتل وسائل لا تحد لاستثارة الخيال السلبي عند السلطة بوضعها أمام حركة معادية مبهمة ومحيرة:

أمر السرية أخذنا إلى قرية تقع تحت المعسكرات الحكومية... اسأله ببداهة العارف:

- ستقصفون وتتراجعون؟

فيجيب باعتداد:

- لن نقصف.. سننام وحسب!

- وما الداعي لهذه المجازفة؟

- الداعي؟ هو أن تقضي هذه المعسكرات ليلة من التوتر والاستنفار. وبعد ذلك سيكتشف الضباط إننا أتينا لننام فحسب!

هذه الحركة الغريبة تحرك داخل الجنود القابعين في ثكناتهم أخيلة الخوف الذي يشوش تقديراتهم. ويمتزج الخوف عندهم بنوع من الاعجاب الخفي بـ «العدو».

المقاتل المحترف يعرف الخيط الدقيق بين التحدي والاستهتار، لذلك يرسم المخاطر بواقعية غير متوترة.. فبعد حسابات سريعة يقول أمر السرية أن العدو سيحتاج إلى ساعة ليجمع قواه وساعة أخرى حتى يصطدم بكمائننا المتقدمة.. خلال ذلك نكون وصلنا إلى أبينا الجبل... بهذه الشجاعة غير المتباهية، ولكن المحسوبة بدهاء، يقطع المقاتل مخاوفه وينقلها إلى الجانب الأخر. ويحث الناس المحيطين به على أن يفعلوا مثله ليكسروا حواجز خوفهم من السلطة. سيسفهها أمامهم:

في (عيد الربيع) أعلنت إذاعتنا المنوعة: موعد إشعال نيران الاحتفال في الساعة السادسة مساء!.. كان هذا موعدا بين مقاتلي الجبل وسكان المدن المحاصرة. نشرت السلطة مدرعاتها وقواتها الخاصة في وضع الجاهزية الكاملة

لمنع الناس من إشعال نيران العيد. لتسفيهها صعدت مفارزنا في سباق مجهد نحو أعلى القمم وأقربها إلى المدن، أي أقربها إلى ربايا السلطة. شق المقاتلون طريقهم إلى تلك القمم في ثلج يصل حتى الخاصرة وهم يحملون على أكتافهم جذوع الأشجار الضخمة... يكبون فتسقط الجذوع وتتدحرج، ثم يجروها ثانية وقد أدميت مفاصلهم من هذا الإصرار الجنوبي على الوصول قبل الموعد المحدد لإشعال النار.

بصعوبة أخذت النار طريقها إلى الخشب الرطب فأخذوا ينفخونها حتى استطاعت ألسنة اللهب عاليا، عاليا... وقد استحوذت النار على المقاتلين بسحرها العجيب وبدا كأن ألسنتها المرتعشة تخرج من عيونهم.. بدأت النار في هذه القمة.. في بيانا، شقولكه، في ساوين، ثم إلى القمم الأبعد... ومع ألسنة اللهب بدأت صليات الرشاشات الخفيفة ثم المتوسطة فالثقيلة. ليست هذه النيران مجرد تسرية عيد.. ففيما يرقص المقاتلون حول النار، كانت عيونهم ترنو إلى تلك القمم الواقعة وراء ربايا الحكومة وسيطرتها: هل رأى سكان المدن المحاصرة نيران المقاتلين؟ وهل سيلبون الموعد؟... لم يدم الانتظار طويلا... فقد صعد أول لسان من النار من قمة فوق (سنكه سر) ثم من (قلعة دزة) كانت هذه أول الرسائل من سكان المدن... اخذ المقاتلون هذا الجواب وانهمكت سلاسل من الأذرع المدماة تنقل الجذوع إلى القمم لترفع اللهب بحمية جنونية. وبين النارين بقيت ربايا السلطة ساكنة دون أن تطلق رصاصة أو قذيفة. كان النار سحرتهم فغابوا أو تواروا.. وفي اليوم الثاني علمت فصائلنا أن نيران المدن قد أشعلت انتفاضة الربيع التي هزت أمان السلطة أياما...

لكن السلطة لا تقبل التحدي من جانب واحد. ولا بد من أن تستعرض شرها أمام الناس لتقول لهم: «لا يذهبن بكم الخيال بعيدا! نحن أقسى مما تتصورون».

وعندما تعجز عن معاقبة المقاتل، تعاقب المعجبين به على إعجابهم. ولديها دائما ردود ثابتة: تغير بطائراتها على قرية نام فيها المقاتلون يوما ما، تدور فوقها في لعبة لئيمة لتحرق البيوت وزرائب الحيوانات واهراءات الحصاد. وذات مرة فتن الطيار، وهو يقصف القرية، بمهر صغير هرب من النار العالقة

بحضيرته. ترك القرية وتابع هذا المهر الذي دار داخل الحقل قافزا متلويا بعيدا عن صليات الرصاص التي تلاحقه. أخطأه الطيار مرتين. فدار دورة طويلة لكي يتسلط عليه من فوق تماما. وفي المرة الثالثة استطاع أن يمرغه على كومة الدريس ثم عاد ليقصف القرية... بهذه الأعاصير النارية تريد السلطة إن تثبت نفسها في ذاكرة أهل القرى بوصفها قدرا قاسيا لابد من قبوله ومداهنته وتقديم قرابين المغفرة إليه بلا انقطاع... وتريد أن تثقل ضمير المقاتل بالثمن الباهض الذي يدفعه الناس مقابل بضع قذائف على مقدسات السلطة.

يختنق المقاتل وهو يواسي أهل القرية ويساعدهم على ترميم بعض ما تهدم، ولكنه يحسب، عندهم الميل لانتقام اعنف يوصل إلى نقطة اللاعودة...

خضر كاكيل

يتقدم مام خضر باتجاه الربية وقد تشكل السهل المحيط بها بمزيج من ذكريات النهار وظلال الأشكال تحت ضوء القمر. حول الربية تفحمت أشجار البلوط والزعرور البري والجوز بفعل القنابل الحارقة. أشجار أخرى اقتلعتها القذائف من جذورها وطرحتها على الطريق سوداء تنشب في الفضاء أغصانا وجذورا كقتلى ماتوا وهم يصرخون: النجدة! حقول الحنطة الكاذبة تجدرت بحفر سوداء غائرة. غير بعيد عنها جثث الخراف أو البغال التي دخلت حقول الألغام سارحة. شظايا القنابل المنثارية غرزت أسنانها في لحم الشجر... لا يطيق ضباط الربايا رؤية شجرة خضراء واقفة. فمخاوفهم تصور لهم كان هذه الأشجار وجدت لتخفي العصاة. ولذلك يمشطون الفضاء حولهم بالقذائف الحارقة لإسقاط كل جسم واقف وله ورق لتكون الأرض حولهم عارية مكشوفة.. وئيدا، ولكن بثبات يدوس الفلاح مام خضر خراب مملكته الأرض وهو يكرر مقولته: ما أسهل الخراب إزاء الجهد الذي بذله الإنسان لإنبات شجرة.. لقد تجاوز مام خضر ذلك الخيال الواهم العاجز المسمى «الحقد». فأمامه تماما السبب والجواب معا.. لقد بدت مزاغل الربية تشع بذلك الضوء المصفر الموحي بحياة الجنود المتروكين بين

الخدر والحذر... يكاد منذ الآن يرى ردود أفعالهم بعد القذيفة الأولى وفي لحظة الاقتحام. تتوضح له الصورة كلما اقترب حتى يوشك أن يرى ملامح وجوههم وحركات أيديهم التلقائية الباحثة عن البنادق. وكلما توضحت صورهم ابتسم وتذكر «من العجيب انه لا يحقد عليهم»! ولذلك يعيد وصيته حتى اللحظة التي تسبق الهجوم:

- لا تنسوا!... اطلبوا التسليم قبل إطلاق النار!

... وكلما اقترب صك أسنانه على سلك الهدوء المرهف داريا أن المباغتة مفتاح السلامة.. ولذلك يفح صوته كلما عكّرت الهدوء خطوات متعثرة:

- أش ش ش.. هدوووء!

وعلى المقاتلين آنذاك أن يجنحوا أكتافهم ليرفعوا أجسادهم قليلا فوق الحجارة والحصى. ويلمسوا الأرض، كما في الوهم، قبل أن يدوسوها. ويكتموا أنفاسهم متوترين كالقوس بانتظار الصوت الذي يطلقه (مام خضر) مقلدا طائرا أليفا في هذه البقاع:

- توك، توك، توك

وتدوي قذيفة الهجوم...

متتبعا خطوات الضحايا

أزور كردستان مرة أخرى مكللا بحزن عميق بعد أن قضيت شهرا ونصف أتتبع تفاصيل مجازر حلبجة والأنفال ومصائر ضحاياها.

ما تزال الصبية التي عاشت الحدث ورافقتنا وهي صحفية شابة تتذكر اللحظة بالتحديد:

- في الساعة السابعة من صباح ٢٤آذار ١٩٨٨ أغارت على المدينة (حلبجة) وأريافها ٢٠ طائرة عراقية.. كانت معنا جدتنا فهرعنا الى الملجأ. حين خرجنا من الملجأ بعد انفجار شديد رأيت سحابة من دخان رمادي وابيض انفرشت مثل وردة.

- شممنا رائحة تفاح.

- لا، كانت رائحة مزيج من الكبريت والبصل.

- آخرون قالوا إنها رائحة عنب.

ما من أحد عرف أن هذا الدخان الذي خيم على المدينة وضواحيها هو الموت بعينه يحمل خليطا من السيانيد وغازات الخردل والأعصاب.. الذين ادركوا الخطر فروا الى البساتين والفضاء المفتوح. ولكن السلطة اغلقت عليهم طرق الانسحاب بإقامة حزام مسمم بواسطة القصف المدفعي... ما حدث لشيوخ المدينة وأطفالها ونسائها أصبح واضحا للعالم: خمسة آلاف قتيل خلال ساعات.. بعضهم اختنق في الملاجئ، وحول سفر الطعام، و تكدس آخرون في السيارات التي أتت لتحملهم بعيدا..

الصحفية الشابة وصفت المشهد اللاحق:

- ... في اليوم الثاني نزلنا قليلا وراقبنا بالناظور المدينة وسهل شهرزور. كانت بضع مروحيات تحلق فوق المشهد. ربما أراد القادة أن يتأكدوا من مفعول ما أبدعوه.



– الناجون الذين صعدو الينا مختنقين وصفوا ما حدث بكلمة واحدة:

– قيامة!

لم تكن البشاعة في مجزرة حلبجه نتاجا عرضيا لعقاب، إنما كانت البشاعة نفسها مطلوبة. وقد كانت صورتها ماثلة في خيال الذي اتخذ القرار. وقد جربت النتائج قبل ذلك بالتطبيق. وما دامت الوسيلة متوفرة فإن التنفيذ يتوقف على قرار. وما كانت السلطة التي اتخذت القرار (مجلس قيادة الثورة) بحاجة الى ذنب مثل تعاون الأحزاب الكردية المسلحة مع ايران.. فالعقاب صدر قبل حدوث الجريمة عبر قرار(حسم نشاط المخربين) الذي يعني افراغ الأرض من سكانها.. وحسب المنطق التحذيري الأمني فإن العقاب لا يحتاج للتطابق مع ذنب يساويه، لا في شخصية المذنب ولا في تزامنه مع الذنب ولا في تجاوره معه مكانيا.. فالمهم ان يكون هناك عقاب شديد على ذنب ما، وليكن معنويا فقط. ولكن ينبغي أن يسبق العقاب الذنب الذي لم يتحقق بعد. وسيطبق هذا العقاب على أي متهم ولأي ذنب لكي يدرك الكل بشاعة ما سيتحملونه.

أتتبع آثار الضحايا عبر الطريق الممتد كالأفعي بين تلال كرميان وشقوقها

الوعرة. لم تقدم السلطات الجديدة لهذه القرى المنكوبة شيئا يذكر، فقد بقيت أطلال القرى كما هي حين هدمتها جرافات صدام، كل شيء على حاله كأن الأنفال حدثت أمس. راديو السيارة التي تأخذنا بين هذه الأطلال يردد اغنية كردية من مقام الصبا تحيلني إلى رحابة المشهد حيث سحب أرضية من ورود البابونج الصفراء تدور حول كتل من صخور قذفتها البراكين قبل آلاف من السنين فشكلت تكوينات عجيبة توشك أن تستحيل رموزا. أنكر المشاهد ووجود من حولي داخل السيارة، أنكر جامعات الكعوب وقد رفعن قاماتهن ووضعن راحاتهن فوق العيون ليتأملن موكب السيارات الحكومية، أنكر صيادي الحجل المخاتلين فوق قمم التلال، أنكر الحاضر النسَّاءَ لأتمثل ما حدث عام ١٩٨٨ قبيل تموز بقليل حين طبقت الأنفال الثالثة على على هذه القرى. أستنطق القبور التي زرعت على طول الطريق في شكل شواهد من أحجار مسطحة تجاورت مثل أنصاب آدمية واقفة فوق التلال وقد أحاطتها سحب من أوراد الخزامي تغذت من مادة الموتى العضوية. أهتز وأتلوى من وعورة الطريق متتبعا مسيرة المؤنفلين الذي أخذوا بالشاحنات العسكرية عبر هذا الطريق. هل التفتوا الى الخلف ليلقوا آخر نظرة الى قراهم وهي تحترق بعد أن سكب الكيروسين عليها أمام عيونهم وأشعلت فيها النار؟ ما شكل المرأة التي تجرأت وصرخت منادية زوجها الذي فصل عنها معصوب العينين؟ نادته باسمه "أوماااار!" فأشعلت بصرختها صراخ الأخريات "ار ار ار" ومعهن يصرخ أطفال فزعون من زحمة الأجساد الخانقة ومن هول المشاهد. أرجّع صراخ النساء وأطفالهن عبر هذه البراري وأحاول أن أتمثل مشاعر المرأة الأولى التي أطلقت صرخة الذئبة الجريحة تلك. من كدس النساء أقفز الى كدس الرجال الذين انتزعوا من زوجاتهم وبيوتهم وأخذوا معصوبي العيون يتهجسون اتجاهات السير ومواقع الطرق من حركة السيارة ليتأكدوا في أي أرض سيقتلون بعد قليل.

قال لي علي زنكنة وهو يريني قريته في منطقة هناره "نزلنا بعد المجزرة من الجبال فوجدنا الكلاب وحدها تحرس ما تبقى من البيوت المهدمة. كانت تنبحنا نحن أبناء القرية الذين تركنا قرانا مع رشاشاتنا الى الجبال. تنبحنا كلما

اقتربنا من الركام بحثا عن فتات طعام. في البداية كان النباح قويا وغاضبا، ثم لان بفعل التكرار والتقادم واستحال أنينا خالصا.

بينما أبحث في اطلال بيتنا عن كيس طحين تعرّف علي كلبنا وهو يتشممني من أسفل قدمي، ودون شعور مسحت رأسه براحتي. منذ تلك اللحظة استعدنا صداقة مسحتها أيام الشدة. صداقة قد تكلفني حياتي وأنا اتسلل في الليل بين كمائن الجحوش التي تترصدني. سيكشفني صديقي الكلب الذي التصق بي مرافقا دائما، سينبح الغرباء، لكنه سيكشفني لرشاشاتهم، لذلك قررت في لحظة شوشتها الدموع أن أطلق عليه رصاصة جرحت قلبي وقتلته".

بحثت بن أطلال قرية علي برزنجي عن دليل على تلك الحياة التي كانت هنا قبل أن تبدأ القيامة، فلم أجد غير بقايا مهد لا أعرف كيف كبر الطفل الذي كان نائما فيه. على مسافة قريبة مضاريف رصاصات الجنود الذين روّعوا القرية في ذلك اليوم الذي لن ينسى.

لقد خلت تلال كرميان من ناسها ولم تبق إلاّ حيوات متناثرة بين الصخور والقبور. ناسها يتتبعون الزمان الجديد ونمو المدن المشوه وقططها السمان الذين نسوا أهلهم المنكوبين في غمرة التكالب على الصعود السريع، نسوا أهلهم ونسوا أنينهم الخافت تاركينهم يعضون الشفاه حد الدم، بينما يلوب الضحايا فوق صخور كرميان بلا مواساة و لا ثأر.

على مسافة نصف ساعة من أربيل يقع مخيم بنصلاوه الذي يضم ضحايا الأنفال. معظم من فيه يعانون من اكتئاب وهلوسة بانتظار المفقودين من أقاربهم. بعد أكثر من ٢٠ عاما على غيابهم لم يتوقف الباقون عن انتظارهم او انتظار جثثهم. بقيت أياما استوضح الضحايا عن الواقعة التي أعرفها بمعناها العام كمجزرة لا تؤلمني تفاصيلها.

أدور من بيت لبيت وأجلس على الأرض لأستنطق من الضحايا أكثر التفاصيل وجعا. معظم المدنيين الذين نجوا لم يتوقعوا، حتى بعد حلبجة، استخدام السلاح الكيمياوي، إنما هيأوا أنفسهم وطريقة حياتهم مع القصف

المدفعي والجوي المألوف في قرى كردستان على مدى سنوات طويلة. لذلك تركزت الإصابات على المدنيين الذين لا يعرفون مفعول الغازات الكيمياوية ولا طرق الوقاية منها، ويروون صورا مروعة لما حدث:

- حين فاجأتنا الطائرات وصوت الانفجارات حولنا كان البعض يقولون هذه غازات سامة، وآخرون ينفون ذلك. لم تكن غارات الطيران تعطينا فرصة لنستوضح فالطائرات لم تنقطع عن سماء القرية، واذا انقطعت سيبدأ القصف المدفعي والراجمات. أعمدة من دخان أبيض كالملح المرشوش، أو أسود مزرق، أصفر، ثم تنزل السحب الى تحت، وانذاك نشم رائحة تفاح حلو، ثم تبدأ الأعراض: ضيق في التنفس حد الاختناق، ودموع محرقة تنهمر مقرحة الاجفان حد العمى، وسائل لزج ومحرق يسود الجلد ويسلخه، ونوبات ارتجاف وتقلصات حادة. أناس يدورون كالمجانين وبعضهم دخل في نوبات ضحك هستيري.. ثم يبدأ الموت حاصدا الاطفال أولا. تماما مثل القيامة مع فارق أنها من فعل بشر. الفيالق القادمة من جبهة الحرب مع ايران، قوات الحرس الجمهوري، قوات الطوارئ، قوات الجيش الشعبي، الأفواج الخفيفة.. كل هذه القوات شكّلت الكماشة اللازمة لمنع سكان القرى المضروبة من الهروب خارج الطوق. بعد ذلك بدأت عمليات فصل الرجال عن النساء ثم الترحيل:

- كنا نترك قرانا محشورين فوق بعضنا بعد أن أخذ رجالنا معصوبي العيون، ومن فوق كنا نرى ألسنة اللهب تلتهم قرانا وبيوتنا. صراخ الأطفال وصراخ النسوة يختلط بصراخ حراسنا وهم يهددوننا بمصير أسوأ من جهنم إذا لم نسكت.

لن ينس الكرد، وبالأخص الذين عاشوا تجربة الانفال، ثلاثة أماكن مشؤومة هي:(معسكر الجيش الشعبي في طوبزاوه) القريب من كركوك، سجن النساء في دوبز الواقع عند ملتقى طريق كركوك- الموصل، وسجن نقرة السلمان في الصحراء الجنوبية الممتدة الى السعودية. في هذه المعسكرات الثلاثة وصل المرحّلون وهم شبه موتى من ضيق المكان والتنفس والجوع والعطش والإحساس بالمجهول. في هذه المعسكرات أنزل الرجال القادرون على حمل السلاح وأخذوا

مربوطين مع بعضهم في حبال جماعية. عذّبوا وأُذّلوا بعد أن أخبروا بقرار إبادتهم جميعا كمخربين. بعد جولات التعذيب أوقفوا على حافة حفر طولية مهيأة مسبقا.. عيونهم مكممة ووجوههم باتجاه الحفر وأطلق عليهم النار من رشاشات متوسطة.. ثم غطتهم الجرافات بالتراب.

الشيوخ اقتيدوا الى سجن نقرة السلمان ليموتوا هناك دون رصاص؛ من الجوع وقلة الماء، ويلقون فيما بعد طعاما للكلاب المسعورة المحيطة بالمعسكر.

أما النساء اللواتي اعتقلن في معسكر طوبزاوه فقد عشن عذابا يهون أمامه الموت، بين الخوف على مصائر رجالهن الذين اقتيدوا الى جهات مجهولة، والخوف على الاطفال الذين يذوون على صدورهن من قلة الحليب و يموتون بمعدل ستة أطفال في اليوم الواحد. وقد حصل الكاتب على رسالة كتبت على قطعة قماش تروي كيف يؤخذ الأطفال من أيدي الأمهات ويلقون في الحفر حتى قبل أن يموتوا.

سألت الضحايا:

- هل يأتي المفقودون في منامكم؟ كيف؟

قال لي واحد في الخامسة والثلاثين من العمر إنه كان مختبئا في دولاب الملابس حين داهمهم الجحوش الأكراد وخلفهم القوات الخاصة:

- نعم أراهم، كما رأيتهم للمرة الأخيرة، من شق ضيق داخل دولاب الملابس، يصرخون وأكاد أختنق من صرخة مكبوتة..

- نعم أرى حفيداتي كل فجر جالسات جنب بعضهن وأنا أصب لهن الشاي.

- أرى والدي ووالدتي كل غروب آتيين من نهاية السهل تسبقهم الخراف.

- يطل شقيقي من كوة ضيقة وعالية وراء جدار يناديني بصوت مخنوق وبيني وبينه جدار القلعة الذي يمنعني من الوصول اليه...

ثم ينزاح عني باكيا:

- لِمَ أتيت لتسألني هذه الأسئلة؟ لتهيج أحزاني؟!

قالوا إن حياتهم لم يعد لها طعم بعد ما رأوه، وما يربطهم بالحياة هو الانتظار المر لأي خبر أو معلومة عمن فقدوهم، وهم يعانون ثقل الكوابيس التي تلاحقهم دون فكاك.

خلال محاكمة المتهمين بالمجزرة طلبت من مراسليّ في عدد من المدن ان يسألوا أجيالا من العراقيين إن كانوا قد سمعوا بالأنفال في وقتها. كان الجواب:

- لا

- أبداً

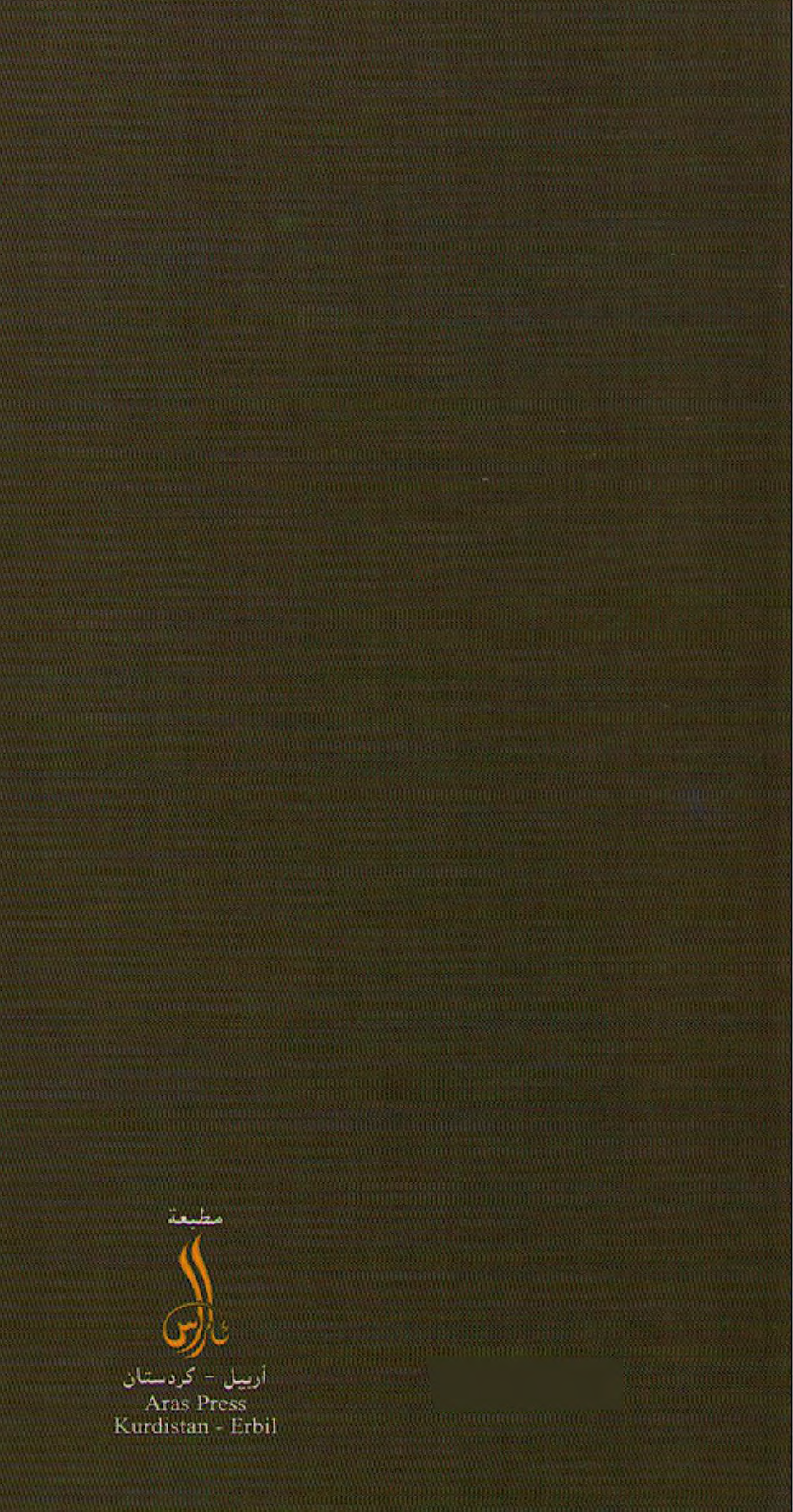
- قصة مختلقة...

حتى في المناطق الكردية كان الجواب في أفضل حالاته:

- سمعنا ولكن ليس بالتفاصيل.

عجبت كيف تمر الجريمة بهذا الصمت.. ١٨٢ ألفا من المواطنين الكرد أزيلوا من الوجود في جريمة تمّت بصمت دون شهود كما في رواية لماركيز. مجزرة طوّقها الصمت حتى أوشك الضحايا أن يحيلوها الى الكوابيس.

فهرست



مطبعة

ئاراس

أربيل - كردستان

Aras Press

Kurdistan - Erbil